

# بِإِغْتِرِ الْكَلِمَاتِ

فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ



الدكتور فاضل صالح السامراني

دار البزك شير

# بلاغت الكلمتين

في التعبير القرآني

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامراني

دار البزكثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِإِغْتِرِ الْكَلِمَاتِ  
فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

- الموضوع: لغة عربية
- العنوان: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

## الطبعة الثانية

1437 هـ - 2016 م

ISBN 978-614-415-138-9

ISBN 978-614-415-138-9



- الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البجينو للتجليد - بيروت
- الورق: أبيض / الطباعة: لوانان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 24x17 / عدد الصفحات: 150 / الوزن: 425 غ

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318  
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا  
تلفاكس: +961 1 817857  
+961 1 705701  
جوال: +961 3 204459

دمشق - سورية - ص.ب: 311  
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي  
تلفاكس: +963 11 2225877  
+963 11 2228450



website: [www.ibn-katheer.com](http://www.ibn-katheer.com) / e-mail: [info@ibn-katheer.com](mailto:info@ibn-katheer.com)



/daribnkatheer



@daribnkatheer



daribnkatheer



daribnkatheer

## المقدمة



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، إمام الهدى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

هذا كتابٌ يبحثُ في المُفردة في القرآن الكريم . والمقصود بـ (المفردة) هو الكلمة الواحدة - كما هو معلوم - .

إنَّ موضوعَ المفردة في القرآن موضوعٌ واسعٌ متشعبٌ الأطراف مُتعدِّدُ المناحي ، غيرَ أنني آثرتُ أن أبحثَ باختصارٍ أموراً أراها ذاتَ أهميةٍ خاصَّةٍ فيما أحسبُ ، وإنَّ كانَ التعبيرُ القرآنيُّ كُلُّهُ مُهمّاً .

وهذه الأهمية تعودُ إلى أكثرَ من سببٍ :

منها : أن قِسماً مما بحثته في هذا الكتاب لم أجد المَعْنِيَيْنِ بدراسةِ بلاغةِ القرآن والمعنيين بدراسة المُتَشَابِهِ قد أشاروا إليه فيما وقع بين يدي من المصادر ، وإنَّ كان لا يبعدُ أن يكونَ مطروِقاً في الأسفار التي لم يُسَعِفْنَا الحِظُّ في الوصولِ إليها وما أكثرها !

وذلك نحو كثير من أحوالِ الذكر والحذف في المفردة ، نحو (تَنزَّل) و(تَنزَّل) ، و(تَوَفَّاهم) و(تَوَفَّاهم) ، و(نَبَّغ) و(نَبَّغِي) ، وغيرها . وذلك كقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [القدر] .

وقوله: ﴿ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ﴿٣٠﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿٩٧﴾ [النساء].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿٢٨﴾ [النحل].

وقوله: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴾ ﴿١٤﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ قَالُوا يَا بَانَ مَابْنِغِي ﴾ ﴿١٥﴾ [يوسف].

ونحو كثيرٍ من أحوال الإبدال في المفردة نحو: (يَضْرَعُونَ) و(يَتَضْرَعُونَ) ، و(يَذْكُرُونَ) و(يَتَذَكَّرُونَ) ، و(اطَّيَّرْنَا) و(تَطَيَّرْنَا) ، وكاستعمال (اللائي) و(اللاتي) وغيرها كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ ﴿١٨﴾ [يس].

وقوله: ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ ﴿٤٧﴾ [النمل].

ولا شك أن كل مفردة وُضِعَتْ وضِعاً فنياً مقصوداً في مكانها المناسب ، وأن الحذف من المفردة مقصودٌ كما أن الذكر مقصودٌ ، وأن الإبدال مقصودٌ كما أن الأصل مقصودٌ ، وكلُّ تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصودٌ له غرضه ، كما سنبينُ ذلك ما وسعنا البيانُ .

والسبب الآخر الذي دعاني إلى تناول هذه المباحث ، هو أن قسماً مما بحثته قد طرقة الباحثون قبلي ، وحاولوا أن يتلمسوا الفروق بين استخدام المفردات ، غير أنني لم أقتنع بقسم من هذه التعليقات ، ورأيتُ أن كثيراً منها مُتَكَلِّفٌ ، فحاولتُ أن أُعَلِّمها تعليلاً آخرَ وجدته أشفى لنفسي وأكثر إقناعاً لي ، وأنا لا أزعمُ أنني أتيتُ بأحسن مما ذكروه ، وأن توجيهي أصوب مما ذهبوا إليه ، ولكنني أذكرُ ما وجدته في نفسي . وهذا نحو توجيه (فَعَّلَ) و(أَفْعَلَ) بمعنى نحو (نَزَلَ) و(أَنْزَلَ) ، و(نَجَّى) و(أَنْجَى) ، كقوله تعالى: ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ﴿٧١﴾ [الأعراف] ، وقوله: ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ ﴿٤٠﴾ [يوسف].



وقوله: ﴿ فَنجَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ ﴾ [يونس] ، وقوله: ﴿ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ ﴾ [الشعراء] .

وكاستعمال الإفراد والثنية والجمع كالنخل والنخيل .

وتعاور المفردات كالعاكفين والقائمين في قوله تعالى: ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة] .

وقوله: ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج] ، وما إلى ذلك .

ثم إن هناك أمراً آخر دعاني إلى تناول مثل هذه الأبحاث ، وهو أنني لم أجد في شأن المفردة في القرآن الكريم وتعليل استعمالاتها كتباً مختصة في حدود ما أطلعت عليه .

نعم هناك في كتب التفسير وكتب المتشابه وغيرها إشارات إلى سبب اختيار هذه اللفظة في هذا الموضوع دون غيرها من المتشابه ، كاختيار (يخرصون) في قوله: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام] ، واختيار (يظنون) في قوله: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة] . أو استعمال (القسط) في قوله: ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [يونس] ، واستعمال (الحق) في قوله: ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر] .

كما أن هناك كتباً في مفردات غريب القرآن قد تذكر الفرق بين لفظة وأخرى كالفرق بين جاء وأتى ، والفرق بين الصراط والطريق والسبيل ، والفرق بين (يفعلون) و(يعملون) و(يصنعون) وهو أشبه بما يُكتب في الفروق اللغوية . غير أنني لم أر كتاباً يبحث في المفردة في القرآن ويُسبِّبها على الموضوعات ويجمع ما تشابه من ذلك ويدرسه ، فحاولت أن أضع بدايةً متواضعةً في هذا الموضوع فلعله يأتي من يَتِمُّ هذا العمل ويتوسّع فيه .



وقد ترى أنني لم أبحث في هذا الكتاب موضوعاتٍ كان من المتوقع أن أبحثها كالإدغام والفلک نحو: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ﴾ [المائدة] ، و﴿وَمَنْ يَرْتَدَّ﴾ [البقرة] وكالفروق اللغوية كالخوف والخشية ، والشح والبخل ، والصراط والسبيل ، والاختلاف بين المصادر ونحوها ، فأقول :

لقد حاولتُ أن أتجنب كثيراً مما بحثته في كتيبي السابقة قدر الإمكان كموضوع الإدغام والفلک الذي ترددت آياته في أكثر من موضوع في كتاب «التعبير القرآني» ، وكتاب: «الجملة العربية والمعنى» ، ونحو كثير من معاني الأبنية كالمصادر والجموع وغيرها مما بحثته في كتاب «معاني الأبنية في العربية» .

أما الموضوعات الأخرى التي لم أبحثها فإنَّ الكلام فيها يتسع اتساعاً كبيراً ، فلعلَّ الله ييسرُ لنا أن نكتبَ فيها شيئاً في قابل الأيام .  
وهناك أمرٌ مهمٌّ جديرٌ بأن أنبئه عليه ، وما كنتُ لأذكره لولا أنني رأيتُ جملةً من حملة العلم أشاروا إليه .

وذلك أنني في أثناء إلقاء محاضرات في هذا الموضوع على جماعة من أهل العلم ، وعلى طلبة الدكتوراه ، وفي مواقف أخرى طرح سؤال ، وهو أن هذه التعليقات قد تكون مقبولةً بموجب الرسم القرآني الذي بين أيدينا ، فكيف يكون التعليق إذا كان الرسم مختلفاً على قراءات أخرى ؟

فمثلاً قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر] . لقد عللنا فيه سبب التعبير بـ (نهر) دون الجمع<sup>(١)</sup> . فكيف إذا كانت هناك قراءة أخرى : (إن المتقين في جنات وأنهار)؟

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء] فكيف



إذا كانت هناك قراءة أخرى (تتوفاهم)؟

وقوله: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴾ [الكهف] ، بحذف الياء ، فكيف إذا

كانت هناك قراءة بإثبات الياء ، أي: (ذلك ما كنا نبغي)؟

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ ﴾ [النمل] . فكيف إذا كانت هناك

قراءة بلا إبدال ، أي: (قالوا إنا تطيرنا بك)؟

وكاستعمال اللاتي واللائي ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ

الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [الأحزاب] .

وقوله: ﴿ وَالَّتِي يَأْتِينَكَ الْفَلْحِشَّةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً

مِّنْكُمْ ﴾ [النساء] . وما إلى ذلك!

والجواب: إنَّ أركان القراءة الصحيحة - كما هو مقرر - ثلاثة:

١ - صحَّةُ السند .

٢ - موافقةُ خط المصحف العثماني .

٣ - موافقة العربية .

ومتى اختلَّ ركنٌ من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو

باطلة ، سواء كانت عن السبعة أم عن العشرة أم عن أكبر منهم .

هذا هو الصحيحُ عند أئمة التحقيق من السلف والخلف<sup>(١)</sup> .

فموافقة رسم المصحف العثماني شرطٌ من شروطِ القراءة الصحيحة ،

ومتى اختل الشرط فخالفت القراءة رسمَ المصحف دخلت في الضَّعْفِ أو

الشذوذ أو البطلان .

وبهذا يزولُ الإشكال ، فإنَّ كل قراءةٍ تخالفُ رسمَ المصحف لا تدخلُ

في الصحيح .

(١) انظر: النشر في القراءات العشر ١/٩ .



وبهذا يتضح أن ليست هناك قراءة صحيحة (إن المتقين في جنات وأنهار) فإن كلمة (أنهار) تخالف رسم المصحف .

وكذلك ما ورد في (تَوَفَّاهُمْ) و(تَوَفَّاهُمْ) فإن (تَوَفَّاهُمْ) تكتب بتاء واحدة و(توفاهم) تكتب بتائين ، فلا تكون إحداهما مكان الأخرى لأن ذلك مخالفٌ لرسم المصحف .

وكذلك قوله: ﴿ مَا كُنَّا نَبْعُكُ ﴾ [الكهف] فإنه ليست هناك قراءة معتمدة بإثبات الياء لأنها رسمت في المصحف بلا ياء .

ونحو قوله: ﴿ أَطَّيَّرْنَا ﴾ [النمل] فإنه لا يصح أن تُقرأ في الموضع نفسه (تطيرنا) لأنها مخالفة لرسم المصحف .

ونحو اللاتي واللاتي ، فإنهما في الرسم العثماني مختلفان .

فاللّاتي ترسمُ بلا صورة للهمزة ﴿ اللّاتي ﴾ .

أما اللّاتي فترسمُ فيها للتاء صورة ﴿ واللّاتي ﴾ .

وكذلك سائر ما ذكرناه ، فإنه لا يصحُّ أن يُقرأ بما يخالف رسم المصحف ، فسقطت هذه الشبهة أصلاً .

وأودُّ أن أذكرَ في الختام أمراً تجدرُ الإشارةُ إليه ، وهو أنني حاولتُ أن أعمدَ في التوجيه والترجيح على الأمور اللغوية المسلّمة ، والقواعد المقرّرة - على قدر علمنا المتواضع - والاستعانة بالسياق لتلمّس الفروق في الاستعمال ، وهو مهم جداً في الدلالة على سبب الاختيار لثلاث تزلّ بنا القدمُ ، وتذهب بنا بُنيّات الطريق .

نسألُ الله أن يلهمنا الرُّشدَ ويهدينا الصِّراطَ المستقيمَ .

إنه سميعٌ مجيب .

## الذكر والحذف



قد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو (استطاعوا) و(اسطاعوا) ، و(تَنَزَّل) و(تَنَزَل) ، و(تتوفاهم) و(تَوَفَّاهم) ، و(لم يكن) و(لم يك) وما إلى ذلك. وكلُّ ذلك لغرضٍ وليس اعتباراً. فالتعبيرُ القرآني تعبيرٌ فنيٌّ مقصود ، كل كلمةٍ ، بل كل حرفٍ إنما وُضِعَ لقصدي ، كما ذكرنا في كتابنا «التعبير القرآني» .

إن القرآن يحذف من الكلمة لغرض ، ولا يفعل ذلك إلا لغرض ، ومن ذلك على سبيل المثال :

أنه يحذف من الفعل للدلالة على أنَّ الحَدَّثَ أقلُّ مما لم يحذف منه ، وأن زمنه أقصر ، ونحو ذلك ، فهو يقطعُ من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحَدَّثِ ، أو يحذفُ منه في مقام الإيجاز والاختصار ، بخلاف مقام الإطالة والتفصيل .

فإذا كان المقامُ مقامَ إيجازٍ أوجزَ في ذكرِ الفعلِ ، فاقتطع منه ، وإذا كان في مقام التفصيل لم يقطع من الفعل ، بل ذكره بأوفى صورة .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه في (التعبير القرآني) وفي (معاني النحو) من نحو قوله تعالى : (لم يكن) و(لم يك) وغيرهما فلا نُعيدُ القولَ فيه<sup>(١)</sup> .

(١) انظر: التعبير القرآني ٧٨ وما بعدها، معاني النحو ٢٤٨/١ وما بعدها .



ونحو قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ ﴿١٧﴾ [الكهف]. وذلك في السدّ الذي صنعه ذو القرنين من زُبُرِ الحديدِ والنحاسِ المُذَابِ . وقد ذكرنا أنّ الصعود على هذا السدّ أيسرُ من إحداثِ نقبٍ فيه لمرور الجيش ، فحذف من الحدث الخفيف ، فقال: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ بخلاف الفعل الشاق الطويل ، فإنه لم يحذف بل أعطاه أطولَ صيغة له فقال: ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ فَخَفَّفَ بالحذف من الفعل الخفيف بخلاف الفعل الشاق الطويل .

ثم إنه لما كان الصُّعودُ على السدِّ يتطلَّبُ زمنًا أقصرَ من إحداثِ النَّقْبِ فيه حذفَ من الفعل وقصرَ منه ليجانس التُّطُقُ الزمنَ الذي يتطلبه كُلُّ حدث . ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿٤﴾ [القدر] .

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢٢﴾ تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٤﴾ [الشعراء] . فقال في هذه الآيات (تنزل) .

في حين قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا خَافُوا وَلَا يُحْزِنُوا وَأَبشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [فصلت] .

فقال في آيتي القدر والشعراء (تنزل) بحذف إحدى التاءين ، وقال في (فُصِّلَتْ): (تتنزل) من دون حذفٍ ، وذلك - والله أعلم - أن التَّنَزَّلَ في آية (فصلت) أكثر مما في الآيتين الأخريين ، ذلك أن المقصود بها أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة<sup>(١)</sup> . وهذا يحدثُ



على مدار السنة في كل لحظة. ففي كل لحظة يموت مؤمنٌ مستقيمٌ، فتنزّل عليه الملائكة لتبشره بالجنة. فأعطى الفعلُ كلَّ صيغته ولم يحذف منه شيئاً.

وأما آية الشعراء فإنَّ التَّنَزَّلَ فيها أقلُّ ، لأنَّ الشياطين لا تنزّل على كلِّ الكفرة ، وإنما تنزلُ على الكهنة ، أو على قسم منهم ، وهم الموصوفون بقوله : ﴿ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَقَاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ . ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً من الناس ، وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم ، بل هم قلةٌ فاقتطع من الحدّث ، فقال : (تنزّل) بحذف إحدى التاءين .

وكذلك ما في آية سورة القدر ، فإنَّ تنزّل الملائكة إنما هو في ليلةٍ واحدة في العام ، وهي ليلةُ القدر ، فهو أقلُّ من التَّنَزَّل الذي يحدث باستمرار على مَنْ يحضره الموت ، فاقتطع من الحدّث .

فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التاءين في آيتي الشعراء وآية القدر لأنَّ التَّنَزَّلَ أقلُّ ، ولم يحذف من آية (فصلت) لأنه أكثر ، والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴿ (٩٩) [النساء] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٨) [النحل] .

فقال في آية النساء : ﴿ تَوَفَّيْتَهُمْ ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في سورة النحل : ﴿ تَوَفَّيْتَهُمْ ﴾ من دون حذف ، ذلك أن المتوفّين في (سورة النساء) هم جزءٌ من الذين هم من (النحل) . فالذين في (النحل) هم الذين



ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم .

وأما الذين في (النساء) فهم المستضعفون منهم ، فهم قسمٌ منهم . فلما كان هؤلاء أقلَّ حذف من الفعل إشارة إلى الاقتران من الحدث ، وإلى قَلْتِهِ بالنسبة إلى الآخرين . فقال في القسم الأكبر : ﴿ تَوَفَّهٖمُ ﴾ وقال في القسم القليل : ﴿ تَوَفَّهٖمُ ﴾ بحذف إحدى التاءين . فناسب بين الفعل وكثرة الحدث .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ [الأحزاب] .

وقوله : ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء] .

فقال في آية الأحزاب : ﴿ تَبَدَّلَ ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في آية النساء : ﴿ وَلَا تَبَدَّلُوا ﴾ من دون الحذف ، ذلك أن آية الأحزاب حُكْمُهَا مقصودٌ على الرسول ﷺ فهو منهىٌّ عن أن يتبدَّلَ بأزواجه أزواجاً .

أما الآية الثانية ، فهي حكمٌ عامٌ للمسلمين على مرِّ العصور ، فقال في الحكم المحدد والحدث المقصور على شخصٍ واحد (تَبَدَّلَ) بالحذف من الفعل ، وقال في الحكم العام الممتدُّ على مرِّ العصور : (تَبَدَّلُوا) فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير ، وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتدُّ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران] .

وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٦﴾ وَمَا نَفَرْنَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشورى] .

فقال في آية آل عمران: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في آية الشورى: ﴿ وَلَا نُنْفَرُوا ﴾ وذلك لأكثر من سبب منها:

١ - أن آية آل عمران خطابٌ للأمة الإسلامية ، وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح ، وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى . فلما كانت هذه في أمم متطاولة على مدى التاريخ ، جاء بالصيغة التي هي أطول . ولما كانت الآية الأولى في أمة واحدة ، وهي أمة محمد ، وهي جزءٌ من الأمم المذكورة في الشورى ، جاء بجزء من الفعل ولم يأت به كله .

٢ - أنه نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء من التفرُّق ، مهما كان قليلاً أو جزئياً ، وحدَّر من ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ فاقتطع من الفعل للدلالة على النهي عن أي شيء من التفرُّق ، مهما قلَّ وضوَّل .

ثم إن الملاحظ أن تحذير الأمة الإسلامية من التفرُّق ونهياها عنه أشد:

١ - فقد خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أمراً ونهياً ومحدِّراً .





٢ - ثم أمرهم بالوحدة والاعتصام بحبل الله فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ .

٣ - ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِالْحَالِ الْمُؤَكَّدَةِ فَقَالَ: ﴿جَمِيعًا﴾ للدلالة على أَنَّ ذلك مطلوبٌ من جميع أفراد الأمة بلا استثناء ، وأنه لا تُغني الكثرة الكاثرة من المتحدين المعتصمين ، بل ينبغي أن يكون ذلك على سبيل العموم والاستغراق ، فلا يشذُّ أحدٌ منهم . ولا تُنجي الكثرة المعتصمة ، أو تعفي الفردَ غيرَ المعتصم من المحاسبة والعقوبة .

٤ - لم يكتف بالأمر السابق ، بل نهاهم بصريح العبارة إضافة إلى ذلك فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .

٥ - التذكير بنعمة الله عليهم في التآليف بين قلوبهم .

٦ - نهاهم عن أن يتشبهوا بمن تفرق واختلف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ .

٧ - توعَّدهم على ذلك بالعذاب العظيم .

٨ - لقد أطلق العذاب ولم يُقيِّده بزمن ، فلم يقل: (وأولئك لهم في الآخرة عذاب عظيم) كما قال في مكان آخر: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة] للدلالة على أَنَّ عذابَ التفرق يطوُّلُهُم في الدنيا والآخرة .

ومن الملاحظ أنه جاء بـ (أن) التفسيرية في آية الشورى ولم يُخاطبهم مخاطبةً صريحةً فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ، في حين نهاهم نهياً مباشراً في آل عمران فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا . . . وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والكلام المباشرُ الصريحُ أهمُّ وأكَّدُ من المُفسَّر . فقولك: (قلتُ له: يا فلان افعل) أهمُّ وأكَّدُ من قولك: (أوصيتُهُ أن افعل).



وهناك ملاحظة أخرى في التعبير أنه جاء بالاسم الموصول (ما) في شرائع الأمم الأخرى ، وجاء بـ (الذي) في شريعة سيدنا محمد ﷺ فقال : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ (ما) وَصَّى بِهِ نُوحًا . . . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى . . . ﴾ ، في حين قال : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴿١٣﴾ ﴾ ذلك أن (الذي) أعرف من (ما) كما هو معلوم <sup>(١)</sup> .

فلما كانت شريعة سيدنا محمد ﷺ أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا ، لأننا نعرفها كلها ، جاء بـ (الذي) ، ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد من حيث معرفتنا بها ، فإننا نعلم ما أعلمنا به ربنا في القرآن الكريم ، جاء بـ (ما) والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

وقوله : ﴿ وَيَنْقَوْمِرِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود] .

فقال في آية الأنفال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾ بحذف إحدى التاءين ، وقال في آية هود : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا ﴾ من دون حذف ، ذلك أن آية الأنفال خطابٌ للمؤمنين : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، وأن آية هود خطابٌ للكافرين ، وهم قوم هود .

ومن المعلوم أن تَوَلَّى المؤمن أقلُّ من تَوَلَّى الكافرين ، ذلك لأن المؤمنين مُطِيعُونَ لله ، بخلاف الكفرة . فلما كان تَوَلَّى المؤمنين أقلُّ حذف من الحَدَث للدلالة على قِلَّةِ تَوَلِّيهم ، بخلاف تَوَلَّى الكافرين ، فإنه

(١) انظر: معاني النحو ١/١٤٩ .



عامٌّ شامل ، فهو يشمل تولّي المؤمنين وزيادة ، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة تولّيهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه نهى المؤمنين عن التولي مهما كان قليلاً ، فقال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا ﴾ ، وهو نظير ما ذكرناه آنفاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أَذُنًا يُؤَوُّونَ لِقَوْمِهِمْ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ نَبَأِ الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الفتح] .

فقال : ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ بتاءين ، ذلك أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا ممن تمكّن الإيمان في قلوبهم ، وأنّ تخلفهم كان تخلف نفاق<sup>(١)</sup> بدليل ما قبلها من الآيات ، فقد قال تعالى فيهم :

١ - ﴿ يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [١١] .

٢ - ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [١٦] .

٣ - ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّتِ السَّوَاءَ ﴾ [١٦] .

٤ - ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [١٦] .

فجاء بالتولي تاماً .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا يَوَدُّ اللَّهُ لِقَوْمٍ أَصْحَابِ الْأَنْفُسِ الْأَعْرَابِ لَا يَضُرُّهُمْ مَا دُنِيَ مِنْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ مَا أُنزِلَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَقِّ أَذُنًا لَهُمْ لَنْ يَضُرُّهُمْ شَيْئًا إِنَّهُمْ كَانُوا ابْتغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴾ [التوبة] .



نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٨﴾ [محمد] .

فقال : ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ بتاءين أيضاً ، ذلك أن المقصود بالتولي هنا هو التولي عن الإيمان والتقوى <sup>(١)</sup> ، فجاء بالتولي تاماً ، فلم يحذف من الفعل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن نَّصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ [البقرة] .

فقال : ﴿ نَصَدَّقُوا ﴾ بحذف إحدى التاءين ، والأصل : (تصدقوا) ذلك لأن هذه من أحوال الصدقة النادرة ، وهو التصدقُ بدين المُعسر ، فحذف لما لم يكن كالصدقة المعتادة لكونها أقل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَأُنَبِّتُكَ بِبَنَائِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ﴿٧٨﴾ [الكهف] ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ﴿٨٧﴾ [الكهف] .

بعدم الحذف من الفعل (تستطع) في الآية الأولى ، وحذف التاء منه في الآية الثانية ، وذلك أن المقام في الآية الأولى مقام شرح وإيضاح وتبيين ، فلم يحذف من الفعل .

وأما الآية الأخرى فهي مقام مفارقة ولم يتكلم بعدها بكلمة وفارقه فحذف من الفعل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجَبُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ [الأنعام] .

وهذا كلام سيدنا إبراهيم مع قومه ومحاجته لهم وهم ناس عريقون في الشرك وعبادة الأوثان ، فهم محتاجون إلى التذكر وإدامة التفكير

(١) انظر : البحر المحيط ٨/٨٦ ، فتح القدير ٥/٤١ ، روح المعاني ٢٦/٨٢ .



والتأمل ، ليهتدوا إلى التوحيد ، كما فعل سيدنا إبراهيم وهو ينظر في ملكوت السموات والأرض ، يبحث عن ربه وخالقه ، فظنه الكوكب بادئ ذي بدء ، ثم ظنه القمر ، ثم ظنه الشمس ، حتى اهتدى إلى خالقه بعد التأمل والنظر والتفكير ، وهذا الأمر ذكره ربنا قبل هذه الآية (الأنعام: ٧٥ - ٧٩) ، ثم انتهى إلى المُحَاجَّة مع قومه : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ (الآية) .

فهذا مما يحتاج إلى طول تذكُّرٍ وتفكيرٍ ، فجاء بالفعل كاملاً لم يحذف منه شيئاً ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ كما ناسب من ناحية أخرى مقام التفصيل والإطالة فيما حكى عن سيدنا إبراهيم واهتدائه إلى الحق من رؤية الكوكب فالقمر ثم الشمس ، ثم انتهى إلى الحقيقة الكبرى حقيقة التوحيد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَبْصِرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود] .

وهذا مما لا يحتاج إلى طول تأملٍ أو تذكُّرٍ أو تفكيرٍ ، فإنك إذا سألت أيَّ فردٍ من عقلاء خَلَقِ اللهُ : هل يستوي رجلٌ أعمى أصمٌّ ورجلٌ بصيرٌ سميعٌ؟ أو هل يستوي الأعمى والبصيرُ والأصمُّ والسميعُ؟ كان جوابه : كلا لا يستويان .

فحذف من الفعل للدلالة على أنَّ هذا لا يحتاج إلى طول تذكُّرٍ وتأملٍ .

وقد تقول : ولكنه قال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر] ، فقال : ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بتاءين فما الفرق؟

والجواب : أنَّ الفَرْقَ واضحٌ بين الآيتين ، ذلك أنَّ آية غافر هذه في الذين كفروا الذين يجادلون في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ أتاهم ، وهؤلاء لا يَرَوْنَ أنَّ المؤمنينَ أفضلُ منهم ، بل على العكس من ذلك ، فإنهم

يَرُونَ أَنفُسَهُمْ أَفْضَلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فهم لا يُقَرِّوْنَ بهذا القول إقرارهم بالآية السابقة ، خصوصاً وأنه عبّر عن الكافر بالمسيء .

جاء في «فتح القدير» في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ (٥٨) : «أي : لا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء بالكفر والمعاصي . وزيادة (لا) في (ولا المسيء) للتأكيد»<sup>(١)</sup> .

وجاء في «تفسير ابن كثير» في تفسير هذه الآية : «أي : لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرقٌ عظيم . كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس»<sup>(٢)</sup> .

فهم يحتاجون إلى طولٍ تذكّرٍ وتفكيرٍ ، ليعلموا أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أفضلٌ من الكافر ، وأن الكافر مسيء . فهذه هي أصل المسألة وعليها مدارُ الخلاف .

فالفرق واضحٌ بين الآيتين . فإنّ آية هود ليس فيها خلافٌ ويستوي جميع عقلاء الخلق في إقرارها مؤمنهم وكافرهم من دون تفكيرٍ ولا طولٍ تذكّر ، ولذا قال في آية هود : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ولم يقرر ذلك بل ترك الجواب لمن يجيب ، وهو معلومٌ ، في حين قرّر ذلك في آية غافر ولم يسأل ، فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . . . ﴾ . لأن جواب هذا السؤال فيه اختلافٌ ، وليس بمنزلة السؤال الأول ، فالفرق واضحٌ بينهما . ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٧) .

(١) فتح القدير ٤ / ٤٨٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٥ .



فإنَّ الجوابَ واضح من دون حاجة إلى طول تأمل وتذكر ، فقال : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الباقية] .

فلو سألت أيَّ شخصٍ هل بإمكانه أن يهديَ شخصاً هذا شأنه :

١ - أنه اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ .

٢ - أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .

٣ - ختم على سمعه .

٤ - ختم على قلبه .

٥ - جعل على بصره غِشَاوَةً .

لأجاب بالنفي ولقال إنه ليس بوسع أحدٍ أن يهديَ مثلَ هذا الشخصِ غيرُ الله . والإجابةُ عن هذا لا تحتاجُ إلى طولِ تأمُّلٍ وتفكيرٍ .

فإنه ليس بوسع أحدٍ أن يهديَ شخصاً لا يسمعُ ولا يرى ولا يفقهُ ، فكيف بمن اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ مع كل ذلك؟

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف] .

فقال : (تذكرون) بقاء واحدة ، وذلك أنها خطابٌ للمؤمنين ، فقد جاء قبل هذه الآية قوله : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ ﴾ [٣] .

والمؤمنون لا يحتاجون إلى طول تذكُّرٍ لاتباع ما أنزل إليهم من ربِّهم ، بل إنهم بتذكُّرٍ قليلٍ يفعلون ذاك . فحذف من آية الأعراف لذلك .



جاء في «تفسير فتح القدير»: في قوله تعالى: ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ... ﴾: «يعني الكتاب ، ومثله السُّنَّة لقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر] ونحوها من الآيات ، وهو أمرٌ للنبي ﷺ ولأمته . وقيل: هو أمر للأُمَّة بعد أمره ﷺ بالتبليغ . وهو مُنزَّل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي ﷺ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ نهيٌ للأُمَّة أن يتَّبِعُوا أَوْلِيَاءَ من دونِ الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله»<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سجدة] .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس] .

فقال في السجدة: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقال في يونس: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وذلك لأنه فَصَّلَ في السجدة ما لم يُفصِّل في يونس وذلك:

١ - أنه قال في يونس: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [٣] .

وقال في السجدة: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فزاد في السجدة: (وما بينهما) .

٢ - قال في يونس: ﴿ يُدِيرُ الْأُمْرَ ﴾ .





وفصّلَ في السجدة فقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ .

ففضّلَ ما أجمله في يونس .

٣ - قال في يونس: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ .

وقال في السجدة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ فزاد الولي .

فأطال في فعل التذكر في السجدة فقال: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ وحذف من الفعل في يونس فقال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مناسبة للمقام .

ومن الذكر والحذف في الفعل قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ ١٤ بحذف الياء من الفعل .

وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَعْنَارِدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ١٥ [يوسف] .

بعدم الحذف ، ذلك أن الحَدَثَ مختلفٌ في الآيتين ، وأن السِّيَاقَ يُوضِحُ ذلك :

قال تعالى في (الكهف): ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ١٣ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ١٤ .

ونسِيَانُ الحوتِ ليس هو ما يبغيه موسى على وجه الحقيقة ، وإنما يبغِي الشخَصَ الذي يريدُ موسى أن يتعلَّم منه .

وأما في سورة يوسف فالطعامُ هو ما يبغون ، وهو سببُ رحلتهم ، ففرَّقُ بين البُعْثَيْنِ . فلمَّا كان في الكهف ليس هو ما يبغون حذف من الحدث إشارة إلى عدم إرادة هذا الحَدَثِ على وجه التمام ، وإنما هو علامة على الموضع الذي يجدون فيه بغيتهم .

ولما كان ما في يوسف هو بغيتهم ذكر الفعل كاملاً ولم يحذف منه .  
فناسب كلُّ مقامه والله أعلم .

٢ - قد تُحذف ياء المتكلم ويُجتزأ عنها بالكسرة وذلك لا يكون إلا لغرض ، فإنه قد تُذكرُ الياءُ في مقام الإطالة والتفصيل ، وتُحذفُ ويُجتزأُ عنها بالكسرة في مقام الإيجاز والاختصار . وقد تُحذفُ لغرض آخر يقتضيه المقامُ إضافةً إلى ذلك ، وذلك كأن يكون المقامُ يقتضي إظهار النفس أكثر من مقام آخر وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [البقرة] بذكر الياء .

وقوله : ﴿ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة] .

وقوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة] .

يحذف الياء منهما . وذلك لأكثر من سببٍ منها :

١ - أن مقام الإطالة والتفصيل في سورة البقرة أكثر بكثير من سياق الآيتين الأخيرين . فإن الكلام على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، وهو يبدأ بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ، ويستمر إلى الآية ١٥٠ .

أما آية المائة ذات الرقم ٣ ، فهي آية واحدة في الأطعمة المحرمة ، وهو قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالِدَةٌ وَأَهْلُ أَعْرَابٍ لَعَلَّ لَعِينُ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَةُ وَالْمُؤَفَّقَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقُوا بِالْأَنْزَلِ ذَلِكَ لَكُمْ فَسَقُ الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .



وأما الآية الأخرى ، فهي في سياق الكلام علي التوراة في آيتين ، وهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرُوا بِبَيِّنَاتِنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . . . ﴿٤٥﴾ [المائدة] .

فاقتضى ذلك الزيادة في البناء (اخشوني) في البقرة دون الآيتين الأخرين .

٢ - أن آية البقرة في تحويل القبلة من بيت المقدس ، وقد أثار ذلك فتنه وملاحاة وإرجافاً من المشركين واليهود ، حتى قال المشركون : «إن محمداً تحير في دينه»<sup>(١)</sup> . وحتى ارتدَّ قسمٌ من ضعاف الإيمان<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر القرآن هذا الأمر فقال : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿١٤٢﴾ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَةً ﴾ ﴿١٤٣﴾ .

﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ ﴿١٤٣﴾ .

﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ ﴿١٤٥﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٤٥﴾ .

(١) فتح القدير ١/١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) انظر : روح المعاني ١/٥ .



﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [١٤٧] . . . إلخ .

أما آية الأطفمة المحرمة فليس فيها ملاحاةٌ ولا إرجافٌ ولا إثارة ، ثم هي بعد انتصار المسلمين وعِزَّة الإسلام واكمال الدين ، فقد قال تعالى فيها : ﴿ أَلْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ [المائدة] .

﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [٢] .

وكذلك آيتا التوراة ليس فيهما إثارة ولا خصومة ، فقد ذكر أن التوراة أنزلت فيها هدىً ونور يحكمُ بها النبيون الذين أسلموا لليهود ، ويحكم بها الربانيون والأخبار . وليس فيها ما يستدعي ملاحاةً ولا فتنة .

فاقتضى المقام في آية البقرة ذكر نفسه - سبحانه - والتخويف منه وإظهار نفسه لخشيته أكثر من المقامين الآخرين .

٣ - إنَّ الشخصَ يُذَكَّرُ بالله ، وَيُخَوَّفُ منه على قدر العمل الذي يُطلبُ منه القيام به ، أو يحذرُ من القيام به ، فكلما كان العملُ أكبرَ كان التذكيرُ بالله والتخويفُ منه أشدَّ . فالذي يقدم على القتل ليس كمن يعتدي على آخر بالسَّبِّ أو الضربِ ، فإنَّ المقدم على القتل يُخَوَّفُ بالله ويحذرُ أكثر بكثير من الشخص الآخر .

وكذلك إذا طلب من شخص أن يقومَ بأمر لا ينهضُ به غيرهُ ، كأن يُطلبَ منه الوقوف في وجه ظالمٍ طاغٍ أو محاربة صائلٍ ، فإنه يُذَكَّرُ بالله ويخوَّفُ منه إذا أحجم عن ذلك ، أكثر بكثير من آخرٍ ليس بمثل هذه المنزلة .

ولا شك أنَّ التحوُّلَ في القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة فيه من الإرجاف والفتنة ومظنَّة الارتداد عن الدين ما ليس في الأمرين الآخرين ،

فاقتضى ذلك إظهار الله لنفسه بذكر الياء، فقال: ﴿وَآخِشُونِي﴾ وأن يجتزئاً بالكسرة إشارةً إلى المتكلم في الموطنين الآخرين.

٤ - إن آيات البقرة فيها توكيدات ، وهي تناسب هذا الإظهار ، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ، ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . . .﴾ ، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ . ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، وغيرها .  
فاقتضى ذلك إظهار الياء في البقرة دون الآيتين الأخريين .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان المتوفى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون]. بذكر الياء في (أخرتني).

وقوله على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء]. بحذف الياء منه .

والفرق بين المقامين ظاهرٌ ، ذلك أن طلب إبليس لا يُريدهُ من أجل نفسه، ولا لأنه محتاجٌ إليه، وإنما يريدهُ ليُضِلَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ. ثم إنَّ هذا الطلب لا يعودُ عليه بنفع ولا يدفعُ عنه ضرراً، وليست له مصلحةٌ فيه، بل العكس هو الصحيح، بخلافِ الطلبِ الآخر، فإنه يريدهُ لنفسه حقاً وأنه لا شيءَ ألزَمُ منه لمصلحته هو ودفع الضرر عنه .

فلما كان طلبُ التأخير لمصلحة الطالب حقاً، وأنه ابتغاه لنفسه على وجه الحقيقة أظهرَ الضميرَ . ولما كان طلبُ إبليس ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف منه الضمير واجتزأ بالكسرة .

ثم في الحقيقة إن كلام إبليس ليس طلباً، وإنما هو شرطٌ دخل عليه القسمُ، فقال: ﴿لَئِنِ أَخَّرْتَنِي﴾ فهو من باب الطلب الضمني، وليس من باب الطلب الصريح .



وأما قوله: ﴿لَوْلَا أُخْرِجْتَنِي﴾ فهو طلبٌ صريح، ففرَّق تبعاً لذلك بين التعبيرين. فصرَّح بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح، وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح. وهو تناظرٌ جميل، ففي الطلب الصريح صرَّح بالضمير، وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف].

فقال في الآية الأولى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ بلا ياء، وقال في الآية الثانية: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ بالياء، ذلك أن الآية الأولى في الدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٩] فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَأَنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران].

وأما الآية الثانية فهي في الدعوة إلى الله، وهي خصوصية بعد الدخول في الإسلام.

ولاشك أن الدعوة إلى الله تتطلب علماً وبصراً بأحكام الإسلام أكثر من مجرد الدخول في الإسلام، لأنها مقامٌ تبليغ، وهذا لا يكون إلا عن علم وبصيرة، وخاصة أنه قال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

(١) لمسات بيانية (من سورة المنافقون) ١٨٨ - ١٨٩.



ثم إنها تتطلبُ اتباعاً للرَّسولِ أكثر في القول والعمل ، فإنَّ الذي يقفُ نفسه للدعوةِ إلى الله ينبغي أن يكون شديدَ الالتزام بتعاليم الإسلام والاتباعِ لرسوله الكريم قولاً وعملاً ، حتى يكون مقبولاً مُجاباً .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنَّ المذكورينَ في آية يوسف داخلون في الآية الأولى ، فهم مسلمون ، وأما المذكورونَ في آية آل عمران فلا يُشترطُ أن يكونوا داخلينَ في آية يوسف ، إذ ليس كلُّ مسلم داعياً إلى الله على بصيرة ، وبذا يكون اتباعُ الرَّسول في آية يوسف أكثر . فهو يشملُ الاتباعَ الأوَّلَ وزيادةً ، فكان ذكرُ الياء فيها أولى من الاجتزاء بالكسرة ، لأن الياء عبارةٌ عن الكسرة وزيادةً ، فلما زاد الاتباع زاد بذكر الياء ، فوضع كل تعبير في مكانه المناسب ، والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَنْتَوِخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود] . بحذف الياء من (تسالن) .

وقوله : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف] بذكرها .

إنَّ الآية الأولى هي في سؤال نوح لربه بعد ما غرق ابنه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴾ ، فقال له ربه : ﴿ قَالَ يَنْتَوِخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ . . . الآية .

وأما في آية الكهف فهي في اشتراط الحُضْر على موسى إذا صحبهُ أن لا يسأله عن شيءٍ حتى يكون هو الذي يُخبرهُ .

فحذف الياء من آية هود وذكرها في آية الكهف . وبالنظر في السياقين يتضح ما يأتي :

١ - في قصة موسى والخضر أنّ الخضرَ كان يتوقَّع أن يسأله موسى عن كلِّ عملٍ يقومُ به مما لا يدركُ حكمتهُ . وأحداثُ المصاحبة بينهما قائمةٌ كلّها على أنّ الرجلَ الصَّالحَ يعملُ أعمالاً مستنكرةً فيما يرى موسى ، فيستنكرُ ويعترضُ أو يسألُ . إذن فالقصَّةُ كلّها تدورُ حولَ ما يفعله الخضرُ واعتراضِ موسى . في حين أنه لم يكنُ في قصة نوح إلا سؤالٌ واحدٌ ، وهو عن شأنِ ابنه .

فاقتضى مقامُ الإطالة والتفصيل في الكهف ذكرَ الياء دون هود .

٢ - إن موسى سأل عن ثلاثة أمورٍ مُشاهدة ، في حين سأل نوح أمراً واحداً ، فناسب الإطالة بذكرِ السؤالات وتعدُّدها أن يذكرَ الياء في الكهف .

٣ - كان التحذيرُ من السؤال في هود أشدَّ مما في الكهف . وقد عَقَّبَ على سؤال نوح بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، وليس الأمرُ كذلك في الكهف ، بل ألمح إلى أنه سيُعلِّمُهُ حِكْمَةَ ما يقومُ به فيما بعدُ ، فقال : ﴿ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

فناسب ذلك حذف الياء في هود إشارة إلى النهي عن أصلِ الحَدَثِ ، بخلاف ما في الكهف .

ومن نافلة القولِ أن نقولَ : إنّ السؤالَ يختلفُ في الآيتين . فالسؤالُ في الكهف هو سؤالُ الاستفهام والاستفسار ، ولذا عَدَّاهُ بعن فقال : ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ . أما سؤال نوح فإنه سؤالٌ طَلَبٍ كما تقول : سألتُه حاجةً ، ولذلك عَدَّاهُ بنفسه .

وقد يكون ذكر الياء وحذفها لغرضٍ آخر قريب مما مرَّ وهو أن يكون ما فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفته الياء ، وذلك نحو ما ورد من ذكر ياء المتكلم وحذفها من كلمة (عباد) و(عبادي) . فما ذُكِرَتْ فيه الياء أوسعُ





وأشمل مما حُذفت منه . فكأنَّ طول البناء إشارة إلى سعة المجموعة ،  
وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر] .

فالعباد هنا قاعدةٌ عريضةٌ واسعة ، فالذين أسرفوا على أنفسهم هم  
الأكثرون .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف] .

وقال : ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام] .

وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ] فذكر الياء .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة] .

فالعباد هنا كثرٌ ، وهم عموم العباد ، فهم إذا سألوه فهو قريبٌ منهم  
يجيبُ داعيهم ، فذكر الياء .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء] . وهو طلبٌ من  
عموم عبادِ الله لم تُقيد بقيد ، وإنما هي مطلقة فذكر الياء .

وقوله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنعام] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت] .

والمؤمنون أيضاً طبقةٌ واسعة ، إذ هم لم يقيدوا بغير الإيمان .  
وقد تقول : ولكنه قال في مكان آخر : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ



لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ  
حِسَابٍ ﴿١١﴾ [الزمر] .

والحق أن الفرق بينهما واضح من وجوه منها:

١ - أنه قال في آية الزمر: ﴿ قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ ﴾ فخصص  
الذين آمنوا بطلب التقوى ، فضيقت دائرة المؤمنين ، وذلك أن عموم  
المؤمنين أكثر من المتقين ، في حين أنه لم يُقَيِّدْهم بغير الإيمان في  
العنكبوت ، فهم طبقة أوسع .

٢ - طلب في آية الزمر من المؤمنين التقوى ، وطلب في آية العنكبوت  
العبادة ، والعبادة أوسع من دائرة التقوى ، وبهذا اتسعت الصفة في آية  
العنكبوت ، وشملت جماعة أكبر . فالمؤمنون أقل ممن يقومون بالعبادات  
على العموم ، فليس كل من يقوم بالعبادة متقياً .

٣ - ومما حسن إظهار الياء في (عبادي) في العنكبوت قوله تعالى :  
﴿ يَعْبادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ ﴾ فأضاف الأرض إلى الياء (أرضي) .  
فالأرض أرضه والعباد عباده ، فأظهر ضمير المتكلم في الموطنين في  
المسكن والساكن (عبادي) .

في حين لم يُضِفْها إلى الياء في آية الزمر ، وإنما قال : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ  
وَسِعَةٌ ﴾ . وههنا أمر آخر ، وهو أنه لا يحسن إضافة الأرض إلى ياء  
المتكلم في الزمر ، لأنه قال : ﴿ قُلْ يَعْبادِ ﴾ فلو قال : (وأرضي واسعة)  
لأوهم ذلك أن الأرض أرض المبلغ أي أرض الرسول ، فيكون المعنى :  
قل لهم : إن أرضي واسعة ، فهذا يحتمل أن تكون الأرض لله ، وأن تكون  
للرسول ، فلما قال : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ ﴾ رفع هذا الاحتمال ، بخلاف ما  
في آية العنكبوت ، فإنه قال فيها : (يا عبادي) ، ولم يقل : (قل يا عبادي) .

فإضافة الأرض إلى ياء المتكلم في العنكبوت أنسب ، وإضافتها إلى الله في آية الزمر أنسب . والأرض مما يصح أن تُضاف إلى الله وإلى غيره ، فتقول: أرض فلان ، وأرض الله . قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ﴾ [الأحزاب].

٤ - ثم إنَّ سَعَةَ الأرض مؤكَّدةٌ في آية العنكبوت دون آية الزمر ، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ فوسع مجموعة العباد مناسبة لهذه السعة ، في حين قال في آية الزمر: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ من دون توكيد .

٥ - قال في آية الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وقال في آية العنكبوت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والصابرون قليلٌ ليسوا كثيراً ، فهم جزءٌ ممن يذوقون الموت الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴾ ، فهذه تشمل كلَّ عبادِ الله ، بخلاف آية الزمر .

فلما توسعت دائرة العباد في العنكبوت قال: ﴿ يَبْعَادِي ﴾ بالياء ، فأظهر الضمير ، ولما قلل العباد في الزمر حذف الضمير .

٦ - ذكر ضمير المتكلم مع العبادة مرتين في العنكبوت فقال: ﴿ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴾ . فالضمير الأول هو: (إيائي) ، والثاني: (الياء) المحذوفة من (اعبدون) .

في حين قال في الزمر: ﴿ أَتَقُورِبَكُمُ ﴾ من دون ذكرٍ لضمير المتكلم ، فلم يقل: (فاتقون) ولا (وإيائي فاتقون) .

فناسب ذلك إبراز الضمير مع العبادة في آية العنكبوت دون الزمر .

٧ - قال في العنكبوت: ﴿ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فذكر مرجع الخلق إليه بذكر



ضمير المتكلمين في (إلينا) ، فناسب إبراز ضمير المتكلم مع العباد ، فإن عباده يرجعون إليه .

٨ - قال في آية الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّادِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وهذا الجزاء ليس مَتَّسِعاً أَتَّسَاعَ ما قال في العنكبوت وهو: ﴿ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، فليس كلُّ العبادِ يُوقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، ولكنَّهم كُلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، فَاتَّسَعَتِ الدَّائِرَةُ فِي العنكبوت فزاد الياء .

٩ - ثم إن ضمائر المتكلم في آية العنكبوت أكثر مما في آية الزمر ، فليس في آية الزمر غير ضميرٍ محذوفٍ ، دَلَّتْ عليه الكسرةُ في قوله: (يا عباده) .

في حين أنَّ في آية العنكبوت خمسةَ ضمائرٍ للمتكلِّم ، والمتكلم المعظم نفسه ، وهي ضمير المتكلم في (عبادي) ، والضمير في (أرضي) ، والضمير (إيَّاي) ، والضمير الذي دَلَّتْ عليه الكسرة في (فاعبدون) ، والضمير المعظم نفسه في (إلينا) .

فَحَسُنَ إبراز الضمير في آية العنكبوت دون آية الزمر .

١٠ - ثم إنَّ لفظ العموم (كل) في العنكبوت مما حسن إبراز الضمير ، لأنه يدل على العموم والشمول ، إذ اتَّسَعَتْ به دائرة العباد اتِّساعاً شاملاً ، بحيث لم يستثنِ أحداً منهم ، بخلاف ما في العنكبوت .

١١ - إن سورة الزمر تكاد تكون مبنية على ضمير الغيبة ، وعلى الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ، بخلاف سورة العنكبوت ، فإنها مبنية على ذكر النفس . فإنه بعد أن قال في الزمر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ التفت إلى الغيبة فقال: ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ ولم يقل: (فاعبدني) . ثم سار الكلام على هذا النسق فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ



كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى... هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ  
 الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... يُكْوِرُ أَيْلَ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ  
 وَالْقَمَرَ... أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا  
 زَوْجَهَا... وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ  
 مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴿٦﴾ .

﴿٦﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا  
 كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ... ﴿٨﴾ فقال: (دعا ربه) ولم يقل: (دعانا) كما  
 قال في موطن اخر.

ثم انظر التناسب اللطيف بين قوله: (دعا ربه) وقوله: ﴿٨﴾ قُلْ يَعْبادِ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾ بذكر (الرب) وهكذا يسير النسق.

بل إنه حتى في قوله: ﴿٨﴾ قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾ لا تَقْنَطُوا  
 مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿١١﴾ التفت من المتكلم إلى الغيبة فقال: ﴿٨﴾ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ  
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ ولم يقل: (لا تقنطوا  
 من رحمتي إني أعفر الذنوب جميعاً ، إني أنا الغفور الرحيم). وقال في  
 الآية التي هي مدار البحث: ﴿١٢﴾ اتَّقُوا رَبَّكُمْ... وَأَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً ﴿١٣﴾ ، في حين  
 قال في العنكبوت: ﴿١٤﴾ إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَايْتِي فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ فبنى الكلام في الزمر  
 على الغيبة ، وبنى الكلام في العنكبوت على المتكلم وإظهار النفس .

إن سياق سورة العنكبوت مبني على التكلم كما ذكرت ، فقد قال:  
 ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ  
 يَسْبِقُونَا ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ  
 أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ  
 بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾



﴿ لَدَخَلْنَاهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٩﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا... ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلخ .

ويستمر إلى أن يقول: ﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا... ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا... ﴾ ﴿٦٧﴾ .

وختم السورة بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾ .

فأنت ترى أنّ جَوَّ السُّورَةِ وسِيَاقَ الآيَاتِ فِي الزُّمَرِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْغَيْبَةِ ، فِي حِينِ أَنَّ سِيَاقَ الْعَنْكَبُوتِ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّكْلِمْ ، فَنَاسَبَ ذِكْرَ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِبْرَازَهُ فِي الْعَنْكَبُوتِ دُونَ الزُّمَرِ .

وقد تقول: ولم قال في الزمر: ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بذكر (قل) ولم يقل مثل ذلك في العنكبوت ، بل قال: ﴿ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من دون (قل)؟

والجواب: أنّ سِيَاقَ الآيَاتِ فِي الزُّمَرِ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّبْلِيغِ ، بِخِلَافِ مَا فِي الْعَنْكَبُوتِ ، فَإِنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى ذِكْرِ النَّفْسِ .

فقد أمر بالتبليغ بقوله: (قل) في الزمر أربع عشرة مرة فقال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ ﴿٨﴾ و﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩﴾ و﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ﴿١٥﴾ و﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ ﴿١١﴾ و﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ ﴿١٣﴾ و﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا ﴾ ﴿١٤﴾ و﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿١٥﴾ .



﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴾ (٣٨) و ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ (٣٨) و ﴿ قُلْ يَتَقَوْمِ  
 أَعْمَلُوا ﴾ (٣٩) و ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ (٤٤) و ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ  
 السَّمَوَاتِ ﴾ (٤٦) و ﴿ قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٥٢) و ﴿ قُلْ أَغْيِرَ  
 اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ ﴾ (٤٤) .

في حين لم يأمره بالتبليغ بقوله: (قل) في العنكبوت إلا ثلاث  
 مرات ، وهي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٥٠) ، وقوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ  
 بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (٥٢) و ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ (٦٦) .

فناسب ذكر القول في الزمر دون العنكبوت .

ومما حذف منه ضمير المتكلم قوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ  
 الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١٨)  
 فحذف الياء لأنهم قلة . فإنه قيّد العباد بالذين يستمعون القول فيتبعون  
 أحسنه .

فهم لم يكتفوا بالحسن ، بل يتبعون الأحسن ، ولا شك أن هؤلاء قلة .  
 ثم ذكر أن هؤلاء هم الذين هداهم الله ، وأنهم أولو الألباب .

فحذف الياء لقلة المذكورين نسيباً .

هذا إضافة إلى فواصل الآي ، فإن هذه الآية تقع ضمن مجموعة من  
 الآيات خواتمها تنتهي بنحو هذه الفاصلة وذلك نحو: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو  
 الْأَلْبَابِ ﴾ (١٨) ﴿ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (١٩) ﴿ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ (٢٠)  
 وغيرها .

فحسن حذف الياء من كل وجه ، والله أعلم .

ومن ذلك ذكر المد (الألف) في فواصل قسم من الآي ، وعدم ذكره  
 في مواطن أخرى ، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام ، وذلك نحو قوله



تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ [٦٦] وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ [٦٧] ﴿ [الأحزاب] بمدّ (الرسول) و(السبيل) مع أنّ القياس لا يقتضي المدّ، وهو لم يمدّ (السبيل) في أول السورة ، وإنما قال : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [٤] .

والفرق بينهما أنّ آيتي المدّ هما من قول أهل النار ، وهم يصطرخون فيها ويمدّون أصواتهم بالبكاء ، كما أخبر عنهم ربنا بقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [٣٧] ﴿ [فاطر] . فللمقام هنا مقام صراخ ومدّ صوتٍ فناسب المدّ .

في حين أنّ الآية الأخرى ليست كذلك ، وإنما هي قول الله مقرّراً حقيقة عقلية معلومة ، قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۗ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [٤] ﴿ [الأحزاب] ، فالمقام لا يقتضي المدّ ههنا بخلاف ذاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ [١٦] ﴿ هنالك أُبْتِلِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [١٧] ﴿ [الأحزاب] .

فمد (الظنون) وأطلقها ، وذلك لأنهم ظنّوا ظنوناً كثيرةً مختلفةً فأطلقها في الصوت مناسبة لتعدّدها وإطلاقها . ولو قال : (الظنون) لوقف على الساكن والساكن مُقَيَّد ، فناسب إطلاق الألف إطلاق الظنون .

والمؤمنون ههنا في موقف ضيقٍ وخوفٍ شديدين وزلزلةٍ عظيمة ، كما أخبر عنهم ربنا ، فغزتهم الظنونُ وشرّقوا وغرّبوا فيها ، فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعدّدها . هذا علاوة على رعاية الفاصلة .

فإن قلت : ولم لم يقل : (وتظنون بالله ظنوناً) وهي مطلقةٌ أصلاً؟





قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب. فإن هذا إطلاقه واجبٌ، فلا يفيد أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكتة. ثم إنَّ الظنون التي ظنَّها أصحابُ رسولِ الله ﷺ معلومة لهم معلومة لله سبحانه، فهي معارفٌ لا نكِرَاتٍ، فناسبَ ذلك التعريف والمدّ.

ومن ذلك ما جاء في سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِبَايَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان].

فأطلق (قوارير) الأولى بالألف، وكان حقُّها ألا تطلق لأنها ممنوعةٌ من الصرف.

ومن دواعي ذلك - والله أعلم - أنه أطلق الصوت فيها مناسبةً لإطلاق جنسها ونوعها، فهو لم يبين نوعَ القوارير ولا من أيِّ جنس هي، فأطلقها لذلك، ولما قيّد جنسها في الآية التي تليها فقال: ﴿قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ﴾ لم يُطْلَقْهَا. هذا علاوة على رعاية الفاصلة، فزادها ذلك حُسْنًا على حسن، والله أعلم.





## الإبدال

وقد يستعمل القرآن الكريم المفردة أحياناً مبدلةً وأحياناً غير مبدلة وذلك نحو (يَتَذَكَّرُ) و(يَذَكَّرُ) ، و(يَتَدَبَّرُ) و(يَدَبَّرُ) ، ونحو مكة وبكة ، وبسطة وبصطة ، فهل لهذا الإبدالِ غرضٌ؟

إننا نرى أنّ كلّ تغيير في التعبير القرآني مهما كان فله سببه ، ولا يكون تغييرٌ من دون سبب . وسنذكر أمثلةً توضّح هذا الأمر :

١ - قد ترد الكلمة في التعبير القرآني مبدلةً مُدغمةً مرة ، ومرةً أخرى تردُّ غير مبدلةٍ ، وذلك نحو قوله في آياتِ عِدَّةٍ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة] وفي آياتٍ أخرى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف] .

ونحو قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء] ، وقوله : ﴿ أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون] .

ونحو قوله : ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة] ، وقوله : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [التوبة] .

بل ربما جمع الصيغتين في آية واحدة أو آياتٍ متقاربة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [التوبة] . فجمع بين قوله : ﴿ يَتَّهَرُوا ﴾ وقوله : ﴿ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

إن أصل هذا الإبدال هو الفكُّ بالفاء ، ف(ادَّبَرَ) أصله (تَدَبَّرَ) فأبدلت



التاء دالاً وأدغمت في الدال ، فسكنت الدال الأولى وجيء بهمزة الوصل  
توصلاً إلى التُّطْق بالسَّاكن . وكذلك (ادَّكَّرَ) أصله (تَدَكَّرَ) ، و(اطَّهَّرَ) أصله  
(تَطَهَّرَ) .

والمضارع كالماضي ، ف (يَدَبِّرُ) أصله (يَتَدَبَّرُ) ، و(يَدَّكِّرُ) أصله  
(يَتَدَكَّرُ) ، و(يَطَّهِّرُ) أصله (يَتَطَهَّرُ) وهكذا . وهو من الإبدال الجائز  
لا الواجب ، ولذا نرى الاستعمالين معاً في اللغة ، وفي القرآن الكريم .  
والمفسرون إذا أوردوا شيئاً من هذا أشاروا إلى أنه مُبدلٌ ، واكتفوا  
بهذا على حدِّ ما أعلمُ .

أما ما يدور في الذهن عن سؤالٍ عن الفرق بينهما في الاستعمال  
القرآني ، فالجواب أنه لا بُدَّ من أن يكون القرآن الكريم قد فَرَّقَ بينهما .  
فإن القرآن دقيقٌ غاية الدقَّة في الاستعمال ، وهو لا يستعمل لفظتين  
بمعنى واحد تماماً وإن كانتا مترادفتين أو مُبدلتين . وحتى إذا كانتا من  
لغتين فهو يخصُّ كلاً منهما بمعنى ، وذلك كما خصَّ (العيون) بعيون الماء  
ولم يستعملها للباصرة ، وكما خصَّ (يشاقق) بمقام (يشاق) بمقام<sup>(١)</sup> مع  
أنهما لغتان مختلفتان ، فخصَّ كلَّ لغةٍ بسياق .

ونعودُ إلى مسألتنا فنقول : إن هناك حقيقتين لغويتين لا بُدَّ أن نذكرهما  
في هذا الأمر :

الأولى : أنَّ بناء (يَتَفَعَّلُ) أطولُ من بناء (يَفْعَلُ) في التُّطْق . ف (يَتَدَكَّرُ)  
أطول من (يَدَّكِّرُ) بمقطع واحد . ف (يَتَدَكَّرُ) متكوَّن من خمسة مقاطع :

(يَ + تَ + ذُكُ + كَ + رُ) ، في حين أن (يَدَّكِّرُ) متكوَّن من أربعة  
مقاطع : (يَدُ + ذُكُ + كَ + رُ) .



والحقيقة الثانية أن بناء (يَفْعَل) فيه تضعيفٌ زائد على (يَتَفَعَّل) ، ففي (يَفْعَل) تضعيفان وفي (يَتَفَعَّل) تضعيفٌ واحد .

وهاتان الحقيقتان اللغويتان لهما شأنهما في تفسير ما نحن بصدده . فما كان على وزن (يَتَفَعَّل) قد يُؤتى به في اللغة للدلالة على التَّدْرُج ، أي الحدوث شيئاً فشيئاً ، وذلك نحو: تَخَطَّى وتمشَّى وتبصَّر وتجسَّس ، فهناك فرق بين (مشى) و(تمشَّى) ، و(خطا) و(تخطَّى) ، و(جسَّس) و(تجسَّس) ، ففي تَمْشَى وتَخَطَّى من التَّدْرُج ما ليس في مَشَى وخطا .

وقد يُؤتى بهذا الوزن للدلالة على التَّكْلُفِ وبِذْلِ الجهد نحو: تَصَبَّرَ وتَحَلَّمَ ، أي: كَلَّفَ نفسه وحَمَلَهَا على الصبر والحلم . وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت والتمهُّل في الحَدَث . وكذلك الأمر في القرآن الكريم . فإذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء في اللغة (يتفعَّل) و(يفعَّل) استعمل (يتفعَّل) لما هو أطولُ زمناً من (يفعَّل) وذلك لأن الفك أطولُ زمناً في النطق كما ذكرنا . فهو ملائم للطول في الحدث . ومثل هذا التناسب وجدناه في أمور عدة في اللغة ، فهناك تناسب بين البناء والمعنى إلى حد كبير . ويكفي أن تعود في مثل هذا إلى باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) في كتاب الخصائص<sup>(١)</sup> لابن جني ليتضح لك هذا .

وما كان على وزن (يفعَّل) يأتي به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث ، وذلك لأن التضعيف كثيراً ما يؤتى به للمبالغة نحو: فعل وفَعَّل ك (قطع) و(قَطَعَ) ، وكَسَرَ وكَسَّرَ ، ففي قَطَعَ وكَسَرَ من المبالغة ما ليس في قَطَعَ وكَسَرَ . ونحو: فُعَالٌ وفُعَالٌ ، مثل: كُبَارٌ وكُبَارٌ ، ف (كُبَارٌ) أبلغُ من (كُبَارٌ) في الاتِّصاف بالحدَث كما هو مقرَّرٌ في كتب اللغة ، فتكرار الحرف إشارةٌ إلى تكرار الحدَث .

(١) الخصائص ٢/١٥٢ ، وما بعدها .



جاء في (الخصائص): «ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل ، فقالوا: كَسَّرَ وَقَطَّعَ وَفَتَّحَ وَغَلَّقَ»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك في غير الأفعال نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة ، فإن الثقيلة أكد من الخفيفة ، ونحو (إنّ) غير المخففة و(إنّ) المخففة ، فغير المخففة أكد من المخففة .

وهكذا يفرق القرآن الكريم بين الصيغتين .

وعلى هذا فإنه يستعمل بناء (يتفعل) لما هو أطول زمناً ، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل .

ويستعمل (يَفْعَل) للمبالغة في الحدّث والإكثار منه .

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأنعام] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف] .

فقال في آية الأنعام: (يَتَضَّرَّعُونَ) ، وقال في الأعراف: (يَضَّرَّعُونَ) بالإبدال والإدغام. وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ، وقال في الأعراف: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ ﴾ والأمم أكثر من القرية ، وهذا يعني تناول الإرسال على مدار التاريخ. فلما طال الحدّث واستمرّ جاء بما هو أطول بناءً فقال: (يَتَضَّرَّعُونَ). ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال: (يَضَّرَّعُونَ). فجاء بما هو أقصر في البناء.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام (أرسل



إلى) فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ ﴿١٠٠﴾ . واستعمل في الأعراف (أرسل في) فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ ﴿١٠١﴾ .

والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث ، فإنك قد ترسلُ إلى شخص رسالة فيبلغها ويعودُ . وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغ والمكث ، فإن (في) تفيدُ الظرفية ، وهذا يعني بقاء النبيِّ بينهم يبلِّغهم ويذكِّرهم بالله ويُرِيهم آيَاتِهِ الْمُؤَيَّدَةَ . ولا شكَّ أنَّ هذا يدعوهم إلى زيادة التضرُّع والمبالغة فيه ، فجاء بالصيغة الدالة على المبالغة في الحدِّث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿١٠٢﴾ . فوضع كلَّ مفردة في مكانها اللائق بها .

ونحو ذلك قوله تعالى :

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُرُجَ وَجَحْنَا بِضَعَّةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف] .

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الأحزاب] .

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [الحديد] .

فقال في آية يوسف: ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ ، وقال في آية الأحزاب: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴿١٠٧﴾﴾ ، غير أنه قال في الحديد: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴿١٠٨﴾﴾ بالإبدال والإدغام .



وقد ناسب كلُّ تعبير موطنه .

ففي آية يوسف قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولم يقل: (المُصَدِّقِينَ) لأكثر من سبب:

منها: أنه مناسب لقوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ .

ومنها: أنهم طلبوا التَّصَدَّقَ عليهم ولم يطلبوا أن يبالغ في الصدقة ، وذلك من حسن أدبهم .

ومنها أنه لو قال: (إن الله يجزي المصَّدِّقين) لأفاد بذلك أن الله يجزي المبالغين في الصَّدقة دون مَنْ لم يبالغ . وهذا غيرُ مراد ، فإن الله يجزي على القليل والكثير وهو يجزي الْمُتَصَدِّقَ والمُصَدِّقَ ، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يدخل فيه المُصَدِّقون ، ولو قال: (يجزي المصَّدِّقين) لم يدخل المُقَلِّون في صدقاتهم ، والله أعلم .

وأما ما ورد في الأحزاب فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام ، وذلك للتفصيل في الصِّفات وتعدادها والإطالة في ذكرها ، فناسب الفكُّ ويشمل عموم أصحاب الصدقة .

وأما ما في آية الحديد فإنه ذكر المُبالغين في الصَّدقات ، وذكر أنه يضاعفُ لهم ، ولهم أجرٌ كريم . وكلُّ اقتضى مكانه . فإنه ذكر مَنْ بالغ في الصَّدقة في سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهي عن البخل ، فناسب ذكرُ المبالغة في الصَّدقة .

فقد قال: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ .

وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .



وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِ لَوْ﴾ ﴿١٧﴾ .

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَكْرَمُ كَرِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ .

وقال: ﴿إِنَّ الْمَصَدِّقِينَ وَالْمَصَدِّقَاتِ﴾ ﴿١٨﴾ .

وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٤﴾ .

في حين لم يرد ذكر للإنفاق والصدقات في سورة الأحزاب على طولها ، وهي ثلاث وسبعون آية عدا ما ورد في هذه الآية التي جمعت عدداً من صفات أهل الإيمان ، وقوله مخاطباً نساء النبي: ﴿وَأَقْمِنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ ﴿٣٣﴾ .

فناسب ذكر المبالغين في الصدقات في الحديد دون الأحزاب ، والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ [النساء] .

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْئَالَهُآ﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد] .

في حين قال: ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ﴾ ﴿١٨﴾ [المؤمنون] .

فقال في الآيتين الأوليين: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿يَذَكِّرُوا﴾ ذلك أن المقام في الآيتين الأوليين يحتاج إلى طول التدبر والتأمل ، وأن المقام في الآية الأخرى يحتاج إلى عمق في التدبر ومبالغة فيه .

وأعني بطول التدبر والتأمل: التدبر العقلي الطويل الذي يؤدي إلى القناعة العقلية عن طريق النظر في الحُجج والاستدلال العقلي .





وأعني بعمق التدبُّر والمبالغة فيه: التَّدبُّرُ القلبي الذي يحملُ الإنسان على الانتفاض للعمل بمقتضى ما يؤمنُ به العقلُ ويسلِّمُ بصحته ، فهو هِزَّةٌ إيمانيةٌ عفيفةٌ تنبعثُ من الأعماق تُصحِّحُ ما ينبغي تصحيحُه من اعتقاد أو سلوك .

وإليك إيضاح ذلك :

قال تعالى في آية النساء: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) .

فالنظر في القرآن وتخريج ما يبدو مختلفاً لأول وهلة يحتاجُ إلى طول تدبُّرٍ وتأملٍ . فطول التأمل والنظر ههنا مُتأتٍ من ناحيتين :

١ - من ناحية أن النظر شامل للقرآن كلُّه على وجه العموم ، وليس في قسم منه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ .

٢ - من ناحية النظر في عدم الاختلاف بين آياته وتخريج ما يبدو مختلفاً .

فجاء لذلك بلفظ (يَتَدَبَّرُ) .

فهذا يرادُ به التدبُّرُ العقلي والنظر الاستدلالي ، والله أعلم .

وقال في آية (محمد): ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) وهذا يحتاجُ إلى طول تدبُّرٍ ونظر أيضاً ، وذلك أن قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ (٢٣) .

فهم مصابون بالصَّمَمِ والعمى ، وعلاوة على ذلك أن قلوبهم مقفلةٌ: ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ والمصابُ بالصَّمَمِ والعمى محتاجٌ إلى تكرار التذكير وتطاوله للوصول إلى الإدراك الصحيح والفهم السليم . كما أن القلوبَ المقفلةَ تحتاجُ إلى طُرُقٍ كثيرةٍ وإلى تكرارِ محاولات الفتح لتفتح .



فهذه الأوصاف تستدعي طول التدبُّر والنظر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ فجعل القرآن كله موضوعاً للتدبُّر وليس قسماً منه ، فزاد ذلك في وقت التدبُّر وأمدّه .

فطول التدبُّر متأثّر من ناحيتين أيضاً :

١ - من ناحية الأوصاف التي تستبعد الفهم .

٢ - من ناحية كثرة المتدبّر وطوله ، وهو القرآن الكريم كله .

ثم إن التدبّر ههنا عملٌ عقليٌّ كما يبدو ، فقد ذكر أن السبل التي توصل العقل إلى الحكم الصحيح معطّلة . فالسمع معطلٌ ، والبصر معطلٌ ، والقلوب مقفلةٌ ، فكيف يصل العقل إلى الحكم السليم ؟

في حين قال في آية أخرى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون] .

ولم يقل : (يتدبّروا) ، وذلك أنه أخذهم على عدم مضاعفة التدبُّر ، وعدم المبالغة فيه من ناحية ، وأخذهم من ناحية أخرى على عدم إعمال قلوبهم في التدبُّر . فهم محتاجون إلى تدبُّرٍ يُوقِظُ قلوبهم ويحيي مواتها .

والدليل على أن التدبُّر هنا عملٌ قلبي لا عملٌ عقلي أن هؤلاء كما أخبر الله عنهم يعرفون رسولهم ولا ينكرونه : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴾ [٦٩] .

وذكر أن هؤلاء كارهون للحق وأنهم لا يعملون بمقتضاه وإن عرفوه ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [٧٥] وأنهم متبعون للهوى لا لحكم العقل والمنطق ، ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [٧١] .



فهم إذن لا يحتاجون إلى طول تدبُّر للوصول إلى معرفة الحق ، فهم يعرفون الحق ويعرفون رسولهم غير أنهم كارهون للحق مُتَّبِعُونَ للهوى . فهم محتاجون إلى ما يَشْفِي قلوبهم من كراهية الحق واتباع الهوى . فافتضى هنا التدبر القلبي لا العقلي .

هذا علاوة على أنه قال : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ ولم يقل : (أفلم يدبِّروا القرآن) كما قال في الآيتين الأخريين . والقول قد يشمل الآية والآيتين منه ، فدعاهم إلى تدبُّر القول . وهذا يتطلب وقتاً أقصر من تدبُّر عموم القرآن ، فلما قصر من المتدبِّر قصر من التدبُّر . ولما أطال في الآيتين الأخريين ، فجعله القرآن كله أطال البناء . والله أعلم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآنُفَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ ﴾

[الليل] .

قوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَتَزَكَّى ﴾ [عبس] .

فقال في الآية الأولى : ﴿ يَتَزَكَّى ﴾ ، وقال في الآية الثانية : ﴿ يَتَزَكَّى ﴾ بالإبدال والإدغام .

ذلك أن الآية الأولى في إيتاء المال ، وهو مستمرٌّ متطاوُلٌ مدى العُمُرِ ، فجاء بالصيغة الطويلة للدلالة على الطول في الزمن . في حين أن الثانية في الأعمى الذي جاء يسأل رسول الله ﷺ ، فأعرض عنه ، فعاتبه الله على ذلك بقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَتَزَكَّى ﴿٣﴾ ﴾ ولا شك أن مدَّة هذا الفعل أقصر من مدة إيتاء المال ، ذلك لأنه جاء يستفهم أو يسترشد في وقت من الأوقات ، فيزكي قلبه بذلك .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التَّزَكَّى الأوَّلَ مقرونٌ بإيتاء المال ، وأن التَّزَكَّى الثاني مقرونٌ بالخشية وطلب الذكر النافع : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ ﴾ والخشية أمر قلبي .



فاستعمل (يَتَزَكَّى) لِمَا هُوَ طَوِيلُ الْأَمَدِ وَدَالٌّ عَلَى التَّدْرُجِ وَلِمَا اقْتَرَنَ بِإِيْتَاءِ الْمَالِ ، وَاسْتَعْمَلَ (يَزَكَّى) لِمَا هُوَ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ مَقْرُونٌ بِالْخَشْيَةِ وَالسَّعْيِ إِلَى الذِّكْرِ . وَهُوَ نَظِيرُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي : يَتَدَبَّرُ وَيَدَّبَّرُ .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [١٠٧] لَا نَفْعَ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [التوبة] .

فَقَالَ فِي آيَةِ الْبَقْرَةِ : ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، وَقَالَ فِي آيَةِ التَّوْبَةِ : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَىٰ فِي الطَّهْرِ مِنَ الْحَيْضِ وَالتَّطَهُّرِ مِنْهُ ، وَهُوَ مُتَكَرِّرٌ مُتَطَاوِلٌ فِي الْعُمُرِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى صِيغَةِ الْفِكَ لِأَنَّهَا أَطْوَلُ .

هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ أَنْ التَّطَهُّرَ فِي الْأُولَىٰ أَمْرٌ بَدَنِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ . فَالنِّسَاءُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّطَهَّرْنَ مِنَ الْحَيْضِ وَالرِّجَالُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ حَتَّىٰ يَتَّطَهَّرْنَ .

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَالتَّطَهُّرُ فِيهَا مَنْظُورٌ إِلَى التَّطَهْرِ الْقَلْبِيِّ أَوَّلًا ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَهَذَا مِنْ فِسَادِ الْبَاطِلِ وَسُوءِ السَّرِيرَةِ وَدَنَسِ الْقَلْبِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ وَفِي أَضْرَابِهِمْ مِنَ الْمَنَافِقِينَ : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة] . فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِتَرْكِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ فِيهِ وَطَلَبِ مِنْهُ الْقِيَامِ فِيمَا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ . ثُمَّ



ذكر بإزاء أولئك المنافقين أصحاب القلوب الدنسة رجالاً آخرين ، وهم أصحاب القلوب الطاهرة المنيبة إلى ربها ، فقال فيهم : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ومعناه : أنه يحب الذين يُبالغون في التَّطَهُّر .

فاستعمل التَّطَهَّرُ في الآية الأولى - أعني آية البقرة - للبدن واستعمله في الآية الثانية للقلب وهو أبلغ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الآية الأولى في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين ، وأن الثانية في صحابة رسول الله ﷺ .

فاستعمل الأبلغ للصحابة ، لأنهم أكمل الناس طهارة ظاهرٍ وباطن . واستعمل الصيغة الطويلة في المدة المتطاوله .

وهذا نظير ما مر من قوله : يَتَزَكَّى وَيَزَكَّى ، وَيَتَدَبَّرُ وَيَدَّبَّرُ .

وقد تقول : ولكنه قال : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا ﴾ فجاء بالفك ، ولم يقل : (يَطَّهَّرُوا) .

ونقول : إن الله جمع لهم بين التَّطَهَّرِينَ : التَّطَهَّرُ في القلب ، والتَّطَهَّرُ في البدن ، وذلك أبلغ وأمدح من أن يذكرهما بنوع واحد . فإنه يُحِبُّ الْمُتَّطَهَّرِينَ جميعاً .

ونحو ذلك ما استعمله القرآن الكريم في (يَتَذَكَّرُ) و(يَذَكَّرُ) فاستعمل (يَتَذَكَّرُ) للتذكُّر العقلي ولما كان يحتاج إلى طول وقت .

واستعمل (يَذَكَّرُ) لما كان فيه هزَّةً للقلب وإيقاظاً له ، ولما كان فيه مبالغة وقوة في التذكُّر ، فقال مثلاً : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٢٥﴾ [النازعات] . وهذا تذكُّر عقلي لِمَا عَمَلَهُ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ . وما عمله يستغرق عُمره كله ، فهو تَذَكَّرُ يستغرق وقتاً طويلاً ،



لأنه تذكُرُ لما سعاه في حياته . وهو تذكُرُ عقليّ وليس تذكُرًا قلبياً يدفعه إلى أن يعمل شيئاً آخر ينفعه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآئِي لَهُ الدِّكْرَى ﴾ [الفجر] .

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة ، فاستعمل (يتذكُر) فيها أيضاً .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر] .

أي : بقيتم في الدنيا مدة طويلة فيها كفاية للتذكُر ، ولكنكم لم تتذكروا .

وقال : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد] .

وهو تذكُرُ يقوم على المحاكمة العقلية . والمقصود بالآية : أفمن يعلم كمن لا يعلم؟

ونحوه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر] .

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة في المفاضلة بين الذي يعلم والذي لا يعلم وهو أمر عقلي ، فجاء بـ (يتذكُر) أيضاً ، والعلم يحتاج إلى النظر الطويل والتدرُّج في المعرفة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [يوسف] ﴿ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم] .



والخلوص من المثل إلى موطن الحكمة والاتعاظ ، وعقد الصلة بين المثل والواقع ، كل ذلك يحتاج إلى طول تذكّر وتأمل ومحاكمة عقلية ، فاستعمل : (يتذكرون) له .

ونحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٧٧) قرءانا عربيا غير ذي عوجٍ لعلهم يتقون ﴿٧٨﴾ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٧٩﴾ [الزمر] .

وهو نظير الآية السابقة ، إذ إن فيه من المثل المضروب ما يحتاج إلى محاكمة عقلية وطول نظر ، ولذا عقب بعد ضرب المثل بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فنفى العلم عن أكثرهم .

والوصول إلى العلم أمرٌ عقليٌّ يكون بالتعلم والنظر . وهو نظير آيات العلم السابقة ، فاستعمل (يتذكرون) كما استعمله في الآيات السابقة .

غير أنه قال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا نَشَفْنَا فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ [الأنفال] .

وهؤلاء مرضى قلوب ، يعاهدون ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، فهم يحتاجون إلى هزة قلبية عنيفة ، وإلى سوط يقرعهم ، وإلى عمل يذكرهم ويبالغ في تذكيرهم ليرتدعوا ، فالمطلوب تذكّر قلبي يُرهبهم ويُزعبهم . إن هؤلاء لم ينتفعوا بالعقل ، فإنهم أبطلوا عقولهم ، ألا ترى أنه سماهم دواب ، بل سماهم شر الدواب ؟

فاستعمل (يتذكرون) الدال على المبالغة في التذكّر والعمق فيه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ



هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٦﴾ أَوَّلًا يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ [التوبة] .

وهذه الآية نظيرة الآية السابقة ، فهي في مرضى القلوب ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ . وذكر أن الآيات المنزلة تزيدهم رجساً إلى رجسهم ، فهم محتاجون إلى يَقْظَةٍ قلبية وهزة نفسية شديدة ، وتذكّر قلبي عميق يوقظهم . فاستعمل (يذكّرون) لذلك .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ﴿٤١﴾ [الإسراء] .

وهذه الآية نظير آية التوبة السابقة ، ألا ترى أنه ذكر أن القرآن ما يزيدهم إلا نفوراً كما يزيد أولئك رجساً إلى رجسهم ؟ وهذا أمر قلبي أيضاً ، فهم محتاجون إلى تذكّر قلبي يوقظهم ، فاستعمل (يذكّروا) كما استعمله فيما مرّ .

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿٧﴾ [آل عمران] .

لقد ذكر في هذه الآية أناساً في قلوبهم زيغٌ ، يبتغون الفتنة ولا يريدون الوصول إلى الحق ، وهؤلاء نظير أولئك من مرضى القلوب ، فهم محتاجون إلى يَقْظَةٍ قلبية وإلى شفاء يشفي قلوبهم مما ألمّ بها من داء . وإن حاجتهم إلى إصلاح قلوبهم أكثر من حاجتهم إلى إصلاح عقولهم .



بين ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس].

وقوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّتَنَبِّئُونَ﴾ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤٌ مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ [النمل].

فقال في (يس): (تَطَيَّرْنَا) ، وقال في النمل: (اطَّيَّرْنَا) ، ذلك أن التَّطَيَّرَ في (النمل) أشدُّ مما في (يس) بدليل أنهم قالوا في (يس): ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ، فهددوهم بالرجم والتعذيب.

أما في النمل فقد أقسموا وتعاهدوا على قتله وقتل أهله . ومعنى ذلك أن التَّطَيَّرَ بلغ عندهم درجةً أكبرَ وأشدَّ مما في (يس) فجاء بما فيه زيادة مبالغة .

ومن الإبدال قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ [يس].

وأصل ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون فأبدلت التاء صاداً ، وأدغمت في الصاد فصار (يَخِصِّمُونَ). والتضعيفُ يفيدُ القُوَّةَ والتكثِيرَ والمبالغة كما ذكرنا . فأفاد ههنا المبالغة في الاختصاص .

والمعنى أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في معاملاتهم منشغلون في خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشدَّ ما يكون غير منشغلين بشيء آخر عن الدنيا ، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله . وفي الحديث: «شرارُ الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء» فتصيحُ الساعة



صِيحَةً تَقَطُّعُ الْاِخْتِصَامَ، فَلَا يَكُونُ نَبَسٌ وَلَا حَرَكَةٌ وَلَا خِصُومَةٌ وَلَا كَلَامٌ، بَلْ صَمِتٌ مَطْبُقٌ وَسَكُونٌ مُطْلَقٌ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. فعبر عن ذلك بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ ولا يَدُلُّ الْأَصْلُ (يَخْتَصِمُونَ) على هذه المبالغة والقوة.

جاء في «البحر المحيط» في هذه الآية: «وهذه هي النفخة الأولى تأخذهم، فيهلكون وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم في أماكنهم من غير إهمال لتوصية ولا رجوع إلى أهل. وفي الحديث: «تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه، فما يطويانه حتى تقوم، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يرفع أكلته إلى فيه، فما تصل إلى فيه حتى تقوم»<sup>(١)</sup>.

في حين قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر] من غير إبدال. ذلك أن الاختصام أمام رب العالمين لا يكون مثل الاختصام في الدنيا. فالاختصام في الدنيا عام يشمل المخاصمات التي تستدعي القضاء والفصل بين المتخاصمين، كما يشمل غيرها، مما لا يستدعي قضاءً ولا فصلاً.

أما الاختصام عند الرب فهو مما يستدعي القضاء والفصل. فبالغ في البناء فيما استعمله في الدنيا، بخلاف ما استعمله في الآخرة، والله أعلم.

٢ - وقد يستعمل كلمة في موطن، ثم يستعملها في موطن آخر مبدلاً فيها حرف، وذلك نحو: مَكَّةَ وَبَكَّةَ، وَاللَّاتِي وَاللَّائِي، وَبِصْطَةَ وَبِسْطَةَ وَنَحْوَهَا. وَكُلُّ ذَلِكَ لِغَرَضٍ.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى



لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿٩٦﴾ فِيْهِ اٰيٰتٌ بَيِّنٰتٌ مِّمَّا قَامَ اِبْرٰهِيْمٌ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ اٰمِنًا وَّلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَفِيْرٌ عَنِ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ [الفتح].

فقال في آية آل عمران: (بَكَّة)، وقال في الفتح: (مَكَّة) «وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ ف جاء بالاسم (بَكَّة) في لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبكُّ الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها<sup>(١)</sup>.

وليس السياق كذلك في آية الفتح ف جاء بالاسم المشهور لها - أعني (مكة) بالميم - فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه، والله أعلم<sup>(٢)</sup>.  
ومن ذلك استعمال اللاتي واللائي.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ اَزْوَاجَكُمْ اَلَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ اُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿اَلَّذِيْنَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ اُمَّهَاتِهِمْ اِنَّ اُمَّهَاتِهِمْ اِلَّا اَلَّتِيْ وَلَدْنَهُمْ وَاِنَّهُمْ لَيَقُولُوْنَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة].

وقال: ﴿وَالَّتِيْ يَبْسُئْنَ مِنَ الْمَحِيْضِ مِّن نِّسَائِكُمْ اِنْ اُرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ اَشْهُرٍ وَالَّتِيْ لَمْ يَحْضَنْ وَاُولٰٓئِكَ اَلْاَحْمَالُ اَجْلُهُنَّ اَنْ يُّضَعْنَ حَمَلُهُنَّ﴾ [الطلاق].

فقال في كل ذلك: (اللائي) بالهمز.

(١) انظر: مفردات الراغب ٥٧.

(٢) التعبير القرآني ١٧٦.



في حين قال: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ ﴿١٥﴾ [النساء].

وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ ﴿١٣﴾ [النساء].

وقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ﴿٥٠﴾ [يوسف]. وغيرها.

ومن الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل (اللائي) بالهمزة في حالي الظهار والطلاق، ولم يستعملها في غيرهما، وكان ذلك لثقل الهمزة. فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة، وهي حالات المفارقة.

ومن الطريف أن بناء (اللائي) وجزسها يوحي بذلك، فكأنها مشتقة من: اللأي، وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة.

والمُظَاهِرُ والمُطَلَّقُ محتبسٌ عن امرأته مبطىءٌ عنها، وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين. فانظر حسن المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال.

ومن ذلك إبدال السين صاداً في لفظتي: (بصطة) و(بيصط).

أما كلمة (بصطة) بالصاد فقد وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ ﴿١٦﴾. ووردت في سورة البقرة بالسين، وهو قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ ﴿٢٤٧﴾ [البقرة]. وذلك



لأمر معنوي ، وهو أنها وردت بالسين في وصف طالوت : ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢٤٤) .

ووردت بالصاد في وصف قبيلة عاد قوم هود . قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (٦٩) [الأعراف] .

وطالوت إنما هو شخص واحد ، وأما عاد فهي قبيلة . ومن المعلوم أن الصاد أقوى من السين وأظهر<sup>(١)</sup> ، فكان السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد ، والصاد الذي هو أقوى وأظهر أليق بالقبيلة .

وأما كلمة (يبسط) بالصاد فقد وردت في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٤٥) [البقرة] . وسائر ما في القرآن (يبسط) بالسين في أكثر من عشرة مواضع ، وذلك أن البسط في آية البقرة مطلق عام لا يخص شيئاً دون شيء ، وفي غيرها مقيد ، ولا شك أن البسط المطلق أقوى من المقيد ، فهو يحتمل البسط في الرزق وفي الأنفس وفي الملك وغيرها ، فجاء في الأقوى بالصاد وفي المقيد بالسين .

جاء في «البرهان» «فصل في حروف متقاربة تختلف في اللفظ لاختلاف المعنى . مثل : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢٤٧) ، و ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ (٦٩) ، و ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢٦) ، ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ (٢٤٥) ، فبالسين السعة الجزئية كذلك علة التقييد ، وبالصاد السعة الكليةً بدليل علو معنى الإطلاق ، وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق»<sup>(٢)</sup> .

(١) الخصائص ١٦١/٢ .

(٢) البرهان ١/٤٢٩ - ٤٣٠ .



وجاء في «البحر المحيط»: في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾: «أي: يسلبُ قوماً ويعطي قوماً، أو يقترُ ويوسعُ. قاله الحسن. أو يقبضُ الصدقات ويخلفُ البذلَ مبسوطاً، أو يقبضُ أي: يُميتُ، لأن من أماته فقد قبضه، ويبسطُ، أي: يُحييه، لأن مَنْ مَدَّ له في عُمُرِه فقد بسطه، أو يقبضُ بعض القلوب فلا تنبسط ويبسط بعضها فيقدم خيراً لنفسه، أو يقبضُ بتعجيل الأجلِ ويبسطُ بطولِ الأملِ، أو يقبضُ بالحظرِ ويبسطُ بالإباحة، أو يقبضُ الصَّدَرَ ويوسعُه، أو يقبضُ يَدَ من يشاءُ بالإنفاق في سبيله، ويبسطُ يَدَ من يشاءُ بالإنفاق... أو يقبضُ الصدقة، ويبسطُ الثواب»<sup>(١)</sup>. وغير ذلك.

وجاء في «فتح القدير»: «هذا عام في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقتير، والبسط: التوسيع»<sup>(٢)</sup>.

وقيل: يقبض الصدقة ويخلفها، وقيل: يبسطُ عليك وأنت ثقيلٌ عن الخروج لا تريده، ويقبضُ عن هذا وهو يطيبُ نفساً بالخروج ويخفُّ له<sup>(٣)</sup>.

فأنت ترى مقدار الإطلاق في القبض والبسط ههنا، بخلاف ما ورد في الآيات الأخرى، فإنه مُقَيَّدُ بالرزق في عشرة مواضع ومقَيَّدُ بغيره في مواضع أخرى.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾<sup>(٢٦)</sup> [الرعد].

وقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾<sup>(٢٧)</sup> [العنكبوت].

(١) البحر المحيط ٢/٢٥٣.

(٢) فتح القدير ١/٢٣٤.

(٣) انظر فتح القدير ١/٢٣٥.

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ﴿٣٠﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ﴿٣٧﴾ [الروم].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ﴿٤٨﴾ [الروم].

فالبسط في غير آية البقرة مقيّد كما ترى، فجاء للمقيّد بالسین ، وللمطلق الذي هو أقوى وأعمّ بالصاد.

ومن ذلك إبدال الواو ياء والضمّة كسرة كما في (عُتُوّ) و(عُتِيّ) ، فقد استعمل مرة (عُتُوّ) ومرة (عُتِيّ) وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ ﴿٦٩﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا المَلٰٓئِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٢١﴾ [الفرقان].

فاستعمل (عُتِيّ) في مريم و(عُتُوّ) في الفرقان وهما مصدران للفعل (عتا يعتو) والكثير (عُتُوّ). وقد ترى أن ذلك للفاصلة في مريم ، إذ إن (عُتِيًّا) أنسبُ مع فواصل مريم. غير أن هذا الاختيار له دلالةٌ أخرى ، وذلك أن الواو كما هو مقرّرٌ أثقلُ وأقوى من الياء ، وأن الضمّة أثقلُ وأقوى من الكسرة لما فيهما من الجهد العضلي. وعلى هذا فـ(عُتُوّ) أثقل من (عُتِيّ) وأقوى.

ومن النصين القرآنيين نلاحظ أن اتصاف المذكورين بالعتوّ في الفرقان أشد مما في مريم ، فاختر لهم اللفظ الأثقل والأقوى ، وذلك:

١ - أنه ذكر أنهم لا يرجون لقاء الله ، أي: هم ممن يكفرون باليوم الآخر.

٢ - أنهم طلبوا ليؤمنوا إنزال الملائكة عليهم ، وهم لم يكتفوا بملكٍ



واحد ، فهم أشدُّ كفرًا ممن قال الله فيهم : إنهم قالوا : ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان] .

فهم يريدون إنزالَ ملائكةٍ لا مَلَكٍ واحد . وإن الإنزال يكون عليهم لا إليه كما طلب الآخرون .

٣ - فإن لم تنزل عليهم الملائكة فينبغي أن يروا ربهم ليُصدِّقوا بالرسول وإلا فلن يُصدِّقوا .

٤ - ذكر أنهم استكبروا في أنفسهم ، أي : رأوا أنفسهم كبيرة .

٥ - وذكر أنهم عتوا عتوًّا كبيرًا . فأكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر . في حين قال في آية مريم : ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ والمذكورون في الفرقان هم من هؤلاء المذكورين في مريم بل من أشدهم .

٦ - ذكر في مريم أنه لينزعن من كان أشد على الرحمن عتياً ، فخصَّ العُتُوَّ على الرحمن ، في حين أطلق العُتُوَّ في الفرقان ولم يقيده بشيء ، فهم عتاةٌ على الرحمن وعلى خلقه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن العُتُوَّ على الله لا ينال منه شيئاً ، بخلاف العتو على البشر . إذ ما قيمة العُتُوَّ على الله؟ وما أثره عليه؟ إنه تجبُّرٌ مضحكٌ . لذلك جعل أخف العتوين ما كان خاصاً وأثقلهما ما كان عاماً .

وهذا نظير ما مر في بصفة وبسطة . والله أعلم .







## فَعْلٌ وَأَفْعَلٌ بِمَعْنَى

قد يردُ في القرآن الكريم فَعْلٌ وَأَفْعَلٌ بِمَعْنَى واحد ، أو كأنهما بمعنى واحد مثل: نَجَّى وَأَنْجَى ، وَنَبَأَ وَأَنْبَأَ ، وَنَزَلَ وَأَنْزَلَ ، ونحن نحاولُ أن نتلمسَ الفرقَ بينهما في الاستعمال القرآني .

إن (فَعْلٌ) يفيدُ التكثير والمبالغة<sup>(١)</sup> غالباً نحو: قَطَّعَ وَفَتَّحَ وَكَسَّرَ وَحَرَّقَ وَسَعَّرَ ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ [الإسراء] . فقال في ينبوع (تَفَجَّرَ) بالتخفيف ، وقال في الأنهار (تُفَجَّرُ) بالتضعيف للكثرة ، وقد يخرجُ هذا المثال - أعني مثالَ فَعْلٌ - عن التكثير إلى معانٍ أخرى كالتعدية نحو فَرَّحْتُهُ ، والنسبة إلى أصل الفعل نحو: فَسَّقَهُ وَكَفَّرَهُ ، أي: نسبة إلى الفسق والكفر ، وغير ذلك من المعاني<sup>(٢)</sup> .

ومن مقتضيات التكثير في الحدِّث استغراق وقتٍ أطولٍ وأنه يفيدُ تَلَبُّثًا ومُكثًّا . ف (قَطَّعَ) يفيدُ استغراقَ وقتٍ أطولٍ من (قَطَّعَ) ، و(فَتَّحَ) يفيدُ استغراقَ وقتٍ أطولٍ من (فَتَّحَ) . وفي (عَلَّمَ) من التَلَبُّثِ وطول الوقت في التعلُّم ما ليس في (أَعْلَمَ) . تقول: (أَعْلَمْتُ محمداً خالداً مسافراً) ،

(١) انظر: مفردات الراغب ٤٨١ (نبا)، بصائر ذوي التمييز ٢١٢/١ (نَجَّى)، ٤٣١/١ (نزل).

(٢) انظر: شرح الرضي على الشافية ٩٢/١ ، وما بعدها .

وتقول: (عَلَّمْتُهُ الْحِسَابَ) ولا تقول: (أَعَلَّمْتُهُ الْحِسَابَ). وكذلك عَوَّدَ وَقَوَّمَ ، فَإِن فِي (قَوَّمَ) مِنَ الْمَبَالِغَةِ فِي التَّقْوِيمِ مَا لَيْسَ فِي (أَقَامَ) ، فَإِن إِقَامَةَ الْجِدَارِ مِثْلًا لَا يِقْتَضِي مَبَالِغَةً وَتَلَبُّثًا كَتَقْوِيمِهِ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ [٧٧] ﴿[الكهف] . وَلَمْ يَقُلْ: فَقَوَّمَهُ ، فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَحْفَظَهُ مِنَ الْهَدْمِ بِإِقَامَتِهِ وَلَيْسَ قَصْدُهُ التَّسْوِيَةَ وَالتَّقْوِيمَ .

وَمِنَ الْإِسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ لِفَعَّلَ وَأَفْعَلَ نَحْو: (كَرَّمٌ وَأَكْرَمٌ) ، فَإِنَّهُ يَسْتَعْمَلُ (كَرَّمٌ) لَمَّا هُوَ أَبْلَغُ وَأَدْوَمُ ، فَمِنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [٧٥] ﴿[الإسراء] . وَهَذَا تَكْرِيمٌ لِبَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ وَالِدَوَامِ ، وَقَوْلُهُ عَلَى لِسَانِ إِبْلِيسَ فِي: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتِ عَلَيَّ﴾ [١٢] ﴿[الإسراء] . أَيْ: فَضَّلْتَهُ عَلَيَّ .

فِي حِينَ قَالَ: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [١٧] ﴿[الفجر] ، وَقَالَ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [١٥] ﴿[الفجر] ، وَهُوَ يَقْصِدُ إِكْرَامَهُ بِالْمَالِ .

فَاسْتَعْمَلَ التَّكْرِيمَ لَمَّا هُوَ أَبْلَغُ وَأَدْوَمُ وَأَعْمُ .

وَكَاسْتَعْمَلَ (أَوْصَى) وَ(وَصَّى) ، فَهُوَ يَسْتَعْمَلُ (وَصَّى) لَمَّا هُوَ أَهْمٌ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْمَبَالِغَةِ ، فَهُوَ يَسْتَعْمَلُ (وَصَّى) لِلْأُمُورِ الْمَعْنُويَةِ وَالْأُمُورِ الدِّينِ ، وَيَسْتَعْمَلُ (أَوْصَى) لِلْأُمُورِ الْمَادِّيَةِ ، وَذَلِكَ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [٨] ﴿[العنكبوت] ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ [١٣٧] ﴿[البقرة] ، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ﴾ [١٥٥] ﴿[الأنعام] .

فِي حِينَ قَالَ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمْتُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنِ﴾ [١١] ﴿[النساء] . وَلَمْ يَسْتَعْمَلِ (أَوْصَى) فِي الْأُمُورِ الْمَعْنُويَةِ وَأُمُورِ الدِّينِ إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [٣١] ﴿[مريم] ، وَذَلِكَ لِاقْتِرَانِ الصَّلَاةِ بِالزَّكَاةِ .



ومنه استعمال (نَزَلَ وَأُنزِلَ) ، فقد ذهب جماعةٌ إلى أن (نَزَلَ) يفيدُ التَّدْرُجَ والتَّكَرَّارَ وأن الإنزالَ عامٌّ . وقيل : إن ذلك هو الأكثرُ وليس نصّاً في أحد المعنيين ، قيل : «ولذلك سُمِّيَ الكتابُ تنزيلاً لأنه لم يُنَزَلْ جملةً واحدةً بل سورة سورة وآية آية . وليس نصّاً فيه . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٣٣] [الفرقان] ، وقوله : ﴿إِنْ دَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ [٤] [الشعراء]» (١) .

وجاء في «ملاك التأويل» في قوله تعالى : ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران] : «إن لفظ (نَزَلَ) يقتضي التَّكَرَّارَ لأجل التضعيف . تقول : (ضَرَبَ) مخففاً لمن وقع منه ذلك مرة واحدة ، ويحتمل الزيادة . والتقليل أنسب وأقوى . أما إذا قلنا : (ضَرَبَ) بتشديد الراء فلا يقال إلا لمن كَثُرَ ذلك منه . فقوله تعالى : ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يشير إلى تفصيل المُنَزَّلِ وتنجيّمه بحسب الدواعي ، وأنه لم ينزل دفعة واحدة . أما لفظ (أُنزِلَ) فلا يعطي ذلك إعطاءً (نَزَلَ) وإن كان محتملاً . وكذلك جرى أحوال هذه الكتب . فإن التوراة إنما أوتيتها موسى عليه السلام جملة واحدة في وقت واحد . . . أما الكتابُ العزيز فنزل مُقسّطاً من لدن ابتداء الوحي . . . وقال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء] . وهو القرآن ، ثم قال : ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد التوراة» (٢) .

والذي يبدو أن استعمال (نَزَلَ) قد يكون للتَّدْرُجِ والتَّكَثِيرِ ، وقد يكون

(١) شرح الرضي على الشافية ١/٩٣ .

(٢) ملك التأويل ١/١٤١ - ١٤٢ .



للاهتمام والمبالغة ، كما في أَوْصَى وَوَصَّى ، فالتنزيلُ قد يستعملُ فيما هو أهمُّ وأبلغُ من الإنزال .

وقد تقول: وكيف يكون اللفظُ الواحدُ لأكثرَ من معنى؟

فنقول: هذا كثير في اللغة ، ومن ذلك على سبيل المثال: (كَفَّرَ يُكْفِرُ) فقد يكون (كَفَّرَهُ) بمعنى: نسبه إلى الكفر، أي قال: هذا كافر، وقد يكون بمعنى: (جعلهُ يُكْفِرُ) ، ومنه قول عمر - رضي الله عنه -: « لا تَضْرِبُوا المسلمين فَتُدْلُوهم ، ولا تمنعوهم حَقَّهُم فَتُكْفِرُوهم لأنهم ربما ارتدُّوا إذا مُنِعوا من الحقِّ»<sup>(١)</sup> .

ومنه (ضَعَفَهُ) ، فقد يكون بمعنى: صَيَّرَهُ ضَعِيفاً ، وبمعنى: نسبه إلى الضعف<sup>(٢)</sup> .

ومنه (زَكَّى) ، فقد يكون بمعنى: نسب الشيءَ إلى الزَّكَاةِ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النجم] . أي: لا تنسبوا إلى زكاء الأعمال والطَّهارة عن المعاصي ولا تُثَنِّوا عليها<sup>(٣)</sup> .

وقد يكون بمعنى: (طَهَّرَ) ، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس] . أي: مَنْ طَهَّرَهَا . وعلى هذا يصحُّ أن تقول: (زَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ولا تُزَكُّوها) ، أي: طَهِّروا أَنْفُسَكُمْ ولا تمدحوها وتُثَنِّوا عليها بزكاء الأعمال ، فإنه لا يُزَكِّي الأَنْفُسَ إلا الله .

ومنه (اسْتَحَلَّ الشيءَ) ، فقد يكون بمعنى: عَدَّهُ حلالاً ، وبمعنى: سأله أن يُحِلَّهُ<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر: لسان العرب (كفر) .

(٢) لسان العرب (ضعف) .

(٣) البحر المحيط ١٦٥/٨ .

(٤) لسان العرب (حلل) .



ومنه (استقام) ، فقد يكون بمعنى : اعتدل واستوى ، وقد يكون بمعنى قَوْمٍ ، ومنه (استقامَ المتاع) أي : قومه<sup>(١)</sup> . وغير ذلك .

ف (نَزَلَ) يمكن أن يستعمل لأكثر من معنى . فإن هذا الفعل قد يكون للتدريج والتكثير كما ذكرت ، وقد يكون للمبالغة والاهتمام . فما استعمل فيه (نَزَلَ) يكون أهمّ وأكّد مما استعمل فيه (أُنزَلَ) .

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف] .

وقوله : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف] ، ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم] .

وبالنظر في سياق هذه الآيات يتضح الفرق .

إن ما ورد في سورة الأعراف من المجادلة والمحاورة والتحدي أشدّ من الموطنين الآخرين .

فقد قال في سورة الأعراف :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَاذْرَأ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَجِئْنَا بِمَا نَعْبُدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [٧٠] قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي فِيْ أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتُسَمَّى وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [٧١] فَأَجِئْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [٧٢] .

في حين لم يكن الأمر في قصة يوسف كذلك ، وإنما هو عرض لعقيدته عليه السلام ، قبل أن يؤوّل الرؤيا للفتين ، فقد قال : ﴿ يَصْحٰجِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [٣٩] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا



أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ  
أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾  
ثم أوّل لهما الرؤيا .

وكذلك في سورة النجم، فإنه لم تكن المجادلةُ بتلك الشدّة ،  
ولا بذلك التّحدّي ، قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلْتُمْ الْفَلَاحَةَ وَالْعُرْوَةَ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾  
أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأَنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَى ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ  
وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ  
مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ . وانتهت المجادلة .

فلم يذكر ردّاً من جانب الكفرة في المواطنين ، بخلاف ما في الأعراف  
الذي انتهى المشهد فيه بتدمير الكافرين وقطع دابرهم ونجاة المؤمنين .

فهم ردوا على نبيهم بقولهم : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَرًا مَا  
كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ . وتحدّوه بقولهم : ﴿ فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴾ .

وهو ردّ عليهم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ  
أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ... ﴾ .

فما في الأعراف أشدُّ كما هو ظاهر ، فجاء بـ (نزل) المضاعف لذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ  
عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنعام] .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ  
وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ  
إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحِيمٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ [العنكبوت] .



فقد قال في الأنعام: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ﴾ ، وقال في العنكبوت: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ﴾ .

والذي يظهر من السياق أن الموقف في الأنعام أشدُّ، وأن موقف الكافرين أعنتُ، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ يَهْتَوُونَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ . . . وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ . . . قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَسَاتِئِ اللَّهِ يَحْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِنَايَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ . . . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ . . . ﴿٣٧﴾ الآية [الأنعام].

وقال في العنكبوت:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَحْحَدُ بِإِذْنِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْحَدُ بِإِذْنِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ . . . ﴿٥٠﴾ [العنكبوت].

فالاختلاف بين المقامين واضحٌ، وإن موقف الشدة والمجادلة بالباطل والعنت والتكذيب في الأنعام أظهرٌ وأوضحٌ، فاستعمل في الشدة وقوة المواجهة (نزل) كما في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

[الأعراف].





جاء في «ملاك التأويل»: أنهم أتوا بالفعل (نَزَلَ) مُضَعَّفًا لِمَا أَرَادُوا مِنَ التَّأَكِيدِ<sup>(١)</sup>.

وجاء فيه أيضاً أن آية العنكبوت لم يتقدّمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدّم آية الأنعام، فناسب ذلك ورود الفعل غير مُضَعَّف<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> [محمد].

فقال في الآية الأولى: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وفي الثانية: ﴿نَزَلَ اللَّهُ﴾.

ومن السِّياق يظهر الفرق بين التعبيرين:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾<sup>(٨)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ<sup>(٩)</sup> ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾<sup>(١٠)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ<sup>(١١)</sup> [محمد].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ وَالشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾<sup>(١٥)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ<sup>(٢١)</sup> فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ<sup>(٢٧)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ<sup>(٢٨)</sup> أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ<sup>(٢٩)</sup> [محمد].

(١) ملك التأويل ١ / ٣٢١.

(٢) ملك التأويل ١ / ٣٢٢.



وبالنظر في الآيات يَتَّضِحُ أن الآياتِ الثانيةِ أشدُّ وأقوى في الهجوم على الكفر وأهله .

١ - فإن الآياتِ الأولى تتكلمُ على الكافرين ابتداءً من قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ ، وهما آيتان وما بعد ذلك يكونُ الكلامُ على مَنْ قبلَهُمْ ، في حين أن الكلامَ كُلَّهُ في السِّياقِ الثاني على الكفرة .

٢ - أنه قال في الآياتِ الأولى : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ و﴿فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ وقال في الآياتِ الثانية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ﴾ و﴿فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ . فالتهديد في الآياتِ الثانيةِ أشدُّ .

٣ - أن صفاتِ الكفر في الآياتِ الثانيةِ أشدُّ .

فقد قال في الآياتِ الأولى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذكر (أنهم كرهوا ما أنزل الله) في حين ذكر في الآياتِ الثانية :

أ - أنهم ارتدُّوا على أديبارهم مِنْ بعد ما تبَيَّن لهم الهدى . وهؤلاء كفرهم أشدُّ لأنهم ارتدُّوا بعد علم .

ب - أن الشيطانَ سَوَّلَ لهم وأملى لهم .

ج - أنهم سَيطِعون الذين كرهوا ما نَزَلَ الله في بعض الأمر .

د - أنهم اتَّبَعوا ما أسخَطَ الله .

هـ - وكرهوا رضوانه .

و - أن في قلوبهم مرضاً .

ز - أنهم يُبْطِنون الأضغان .



فاستعمل (نَزَلَ) لما هو أشدُّ وأقوى .

ومنه استعمال (نَجَّى) و(أُنَجَّى) ، فإن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستعمل (نَجَّى) للتلبث والتمهل في التنجية ، ويستعمل (أُنَجَّى) للإسراع فيها . فإن (أُنَجَّى) أسرعُ من (نَجَّى) في التخلص من الشدة والكره .

هذا وإن البناء اللُّغوي لكلُّ منهما يدلُّ على ذلك كما ذكرنا .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة] .

فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل (أُنَجَّى) ، بخلاف البقاء مع آل فرعون ، فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل له (نَجَّى) .

ونحوه قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] . فإنه لم يذق حرَّها ، وإنما كانت بزداً وسلاماً عليه ، فاستعمل (أُنَجَّاهُ) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء] .

وقوله : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت] .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ



بَرِيحٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ  
أَحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ  
الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٢٢﴾ [يونس] .

فقال في آيتي الإسراء والعنكبوت: (نَجَّاهُمْ) و(نَجَّاهُمْ) ، وقال في آية  
يونس: (أَنْجَاهُمْ) ، وذلك أن الأمر أشد، فإنه ذكر أن ريحاً عاصفاً  
جاءتهم وهم في الفلك وأن الموج جاءهم من كلِّ مكان وظنوا أنهم أحيط  
بهم وأنهم عاهدوا الله لئن أنجاهم ليَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . ولم يتعهدوا في  
الحالتين الأخيرين .

وهذه الحالة تتطلب الإسراع في نجاتهم وعدم المكث فيما هم فيه ،  
فقالوا: ﴿ لِيْنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ [يونس] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾  
[يونس] .

أما في الإسراء فقد قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ فلم يحدد نوع  
الضَّرِّ ولا شِدَّتَهُ ، فقد يكون خفيفاً . وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ﴾ ولم يقل:  
(أصابكم) والمسُّ أخفُّ من الإصابة ، فاحتمل ذلك المكث في البحر أكثر  
مما في يونس ، فقال: (نَجَّاهُمْ) .

وأما في العنكبوت فلم يذكر أنه أصابهم مكررة أو مسَّهم ضُرٌّ ، وإنما  
هي حالة خوف تعترى راكب البحر فيدعو لنفسه بالنجاة ، فقال:  
(نَجَّاهُمْ) .

فاستعمل (أَنْجَى) للإسراع في النِّجَاة ، واستعمل (نَجَّى) لما فيه مُكْثٌ  
وَتَمَهُّلٌ .

ونحوه قوله تعالى: ﴿ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزِمْ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِذٍ  
بَيْنِهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّبُهَا ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ  
يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ [المعارج] . أي: يَوْمُذٌ لو يفتدي بكل شيء على أن لا يدخل



لظى، ولا يذوقها لهولها، فإنه لا يحتمل ورودها بَلَةً أن يَصْلَاهَا. فاستعمل (يُنَجِّيه) مضارع (أُنَجَّى).

وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعمل في القصة الواحدة مرة (أُنَجَّى) ومرة (نَجَّى) كما في قوله تعالى في سيدنا نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس].

وقوله مرة أخرى: ﴿فَأَجْنِبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء].

وكما في قصة ثمود فقد قال مرة: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

وقال مرة أخرى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]. وغير ذلك.

فنقول: إن ذلك بحسب ما يقتضيه السِّياقُ والمقامُ، فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكرَ الإسراعِ في النِّجاةِ فيستعمل (أُنَجَّى)، وقد لا يتطلَّبُ ذلك فيستعمل (نَجَّى)، وكلُّ ذلك صحيحٌ، فقد نستطيلُ أمراً وقد نستقصره بحسب المقام. فقد تقولُ في مقام: (الدنيا طويلة)، وقد تقول في مقام آخر: (الدنيا قصيرة) ولكلِّ مقامٍ مقالٌ. وإليك إيضاحُ الفرقِ بينَ ما ذكرت:

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقال في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمِنْ مَعَكَ قَالَ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا



شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَّا دَمَرْنَا لَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَحْيَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ .

وواضح من السياقين أن القصة ذكرت في النمل أكثر تفصيلاً ، وأن الموقف فيها أشد مما في فصلت ، فقد ذكر فيها :

١- أنهم فريقان يختصمون .

٢- وأن الكفرة استعجلوا السيئة قبل الحسنه .

٣- وقالوا للنبيهم : ﴿ قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ .

٤- وأنهم تقاسموا بالله على استئصاله واستئصال أهله .

٥- وأنهم مكروا لذلك وأعدوا خُطَّتَهُمْ .

فاستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم وتدمير أهل الباطل ، لأن الوقت لم يعد يحتمل الإرجاء والإبطاء . فاستعمل (أنجى) لذلك .

وليس المقام كذلك في (فصلت) فإنه لم يذكر سوى أنه هداهم ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى .

ونحو ذلك قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [يونس] .

وقوله : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الشعراء] .

فقد قال في يونس : ﴿ فَجَبْنَاهُ ﴾ ، وقال في الشعراء : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾

وإليك بيان ذلك :

قال تعالى في سورة يونس : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ



وَشُرَكَاءَ كُفْرًا لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ  
فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ  
فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَرِّينَ ﴿٧٨﴾ .

وقال في الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا  
نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِن  
أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴿١١١﴾ وَاتَّبَعَكَ  
الْأَرْدَلُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾  
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْفُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ  
الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ .

وظاهر من السياق في القصتين أن القصة ذكّرت في الشعراء بصورة  
أكثر تفصيلاً وأن الموقف أشدّ والمحااجة أطول والتهديدات أشدّ.

١ - فقد وصفوا المؤمنين بأنهم أراذل: ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴿١١١﴾ وَاتَّبَعَكَ  
الْأَرْدَلُونَ ﴿١١٢﴾ .

٢ - وأنهم طلبوا طرد المؤمنين ، فقال لهم: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ .

٣ - وأنهم هددوه بالرجم إن لم يكفّ عن دعوتهم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْفُوحْ  
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ .

٤ - وأنّ نوحاً شكاً إلى ربه تكذيب قوم له: ﴿ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ .

٥ - وأنه دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا  
وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ .



فاستدعى ذلك الإسراع في إنجائهم ، بخلاف ما في سورة يونس التي لم يكن فيها شيء من ذلك .

وهذه القصة نظيرة ما ذكرناه في قصة صالح .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف] .

فقال في سورة البقرة : (نَجَّيْنَاكُمْ) ، وقال في الأعراف : (أَنْجَيْنَاكُمْ) ، ذلك أنه لم يذكر في سورة البقرة شيئاً من حالهم مع فرعون والمجتمع الذي يعيشون فيه سوى هذه الآية .

أما في سورة الأعراف فقد أطلنا وفصّلنا في حالتهم مع فرعون وقومه ابتداءً من الآية الرابعة بعد المائة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المائة (من ١٠٤ - ١٤١) .

فإنه بعد أن ذكر مواجهة سيدنا موسى لفرعون ودعوته للإيمان وإظهار الآيات الدالة على صدقه ، ذكر شأنه مع السحرة وإيمانهم به وتهديد فرعون لهم .

ثم ذكر قول الملائكة لفرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

فاستمر الأذى على ما كان عليه قبل مجيء موسى وزاد حتى قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾





وذكروا أموراً تُبَيِّنُ حالة التوتُّر والمعاناة التي يعيشونها في ذلك المجتمع مما لم يذكر في سورة البقرة .

لقد ذكر في الأعراف ما ذكره في البقرة من الأذى وزاد عليه ، فاقضى ذلك الإسراع في إنجائهم ، فقال في البقرة: (نَجَّى) وفي الأعراف: (أَنْجَى) وهو نظير ما ذكرنا في الآيات السابقة .

ونظير ذلك ما ورد في سورة إبراهيم وهو قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ .

فاستعمل (أَنْجَاكُمْ) لما زاد على ما في البقرة من العذاب . فإنه قال في البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ .

فإنه فسّر سوء العذاب بقوله: ﴿يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ، في حين عطف تذبيح الأبناء على سوء العذاب في آية إبراهيم ، فجعل تذبيح الأبناء أمراً آخر غير سوء العذاب<sup>(١)</sup> . فلما زاد في العذاب اقتضى ذلك الإسراع في الإنجاء كما ذكرنا في الأعراف .

هذا إضافة إلى تذكيرهم بنعمة الله في نجاتهم . والتذكير بنعمة الله في (أَنْجَى) أبلغ من (نَجَّى) لما فيه من الإسراع في النجاة ، وإن كان كلُّ منهما من جليل النعم .

فَاتَّضَحَ ما قلناه والله أعلم .

\* \* \*

(١) انظر: معاني القرآن ٢/ ٦٨ - ٦٩ ، الكشاف ٢/ ١٧٢ .

## المبني للمجهول



لا نريد أن نبحت هنا المبني للمجهول ، فإننا ذكرنا كثيراً من أحواله وأمثلته في كتابنا «معاني النحو» فلا نعيد القول فيه ، وإنما عرض سؤالان في المبني للمجهول :

أحدهما: قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿لَا فِيهَا عَوقٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ببناء الفعل (يُنْزِفُونَ) للمجهول ، في حين قال في سورة الواقعة: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ببنائه للمعلوم .

فما السبب؟ وهل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟ .

والآخر: هو سبب بناء الفعل (طبع) للمجهول في قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [التوبة] ، وبنائه للمعلوم في قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ [التوبة] .

أما الجواب عن السؤال الأول فإن (يُنْزِفُونَ) بكسر الزاي له أكثر من معنى . فإن معنى: (أَنْزَفَ يُنْزِفُ): نَفِدَ شَرَابُهُ ، ومعناه أيضاً: ذهب عقله وسَكِرَ .

ومعنى (يُنْزِفُ) بالبناء للمجهول: ذهب عقله من السُّكْرِ ، وهو من (نُزِفَ) . جاء في (لسان العرب): «أَنْزَفَ القَوْمُ: نَفِدَ شَرَابُهُمْ . الجوهري: أَنْزَفَ القَوْمُ ، إذا انقطع شرابهم . . . والمنزوفُ: السَّكرانُ المنزوفُ



العقل ، وقد نُزِفَ . في التنزيل العزيز: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ أي : لا يسكرون .

قال الفراء : وله معنيان ، يقال : (أَنْزَفَ الرَّجُلُ) فَنِيَّ خَمْرُهُ ، أو (أَنْزَفَ) إذا ذهب عقله من السُّكْرِ ، فهذان وجهان في قراءة من قرأ : (يُنْزِفُونَ) . ومن قرأ : (يُنْزِفُونَ) فمعناه : لا تذهب عقولهم ، أي : لا يسكرون<sup>(١)</sup> .

فمعنى الآية في الواقعة أن هذا الشراب لا يَنْقُدُ ولا يَنْقَطِعُ وأنهم لا يسكرون عنه .

ومعناها في الصّافات أن هذا الشراب لا يُذْهِبُ عقولهم فلا يسكرون عنه .

أما جوابُ السؤال الآخر وهو : هل يصح وضع أحدهما مكان الآخر؟

فالجواب عنه أن كلَّ مفردةٍ إنما وُضِعَتْ في مكانها المناسب من أكثر من وجه ، ذلك أن سياق الآيات في سورة الواقعة إنما هو في السابقين المُقْرَبِينَ ، وهم أعلى الخلق من المكلّفين . قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقْرَبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهَاتِمَا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلِحَدِّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ .

وسياق الآيات في سورة الصافات إنما هو في المؤمنين المُخْلِصِينَ .

قال تعالى : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾

(١) لسان العرب (نزف) ٢٣٨/١١ - ٢٤٠ ، وانظر : معاني القرآن ٢/٣٨٥ .



بِضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ .

والسَّابِقُونَ أَعْلَىٰ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَإِنَّهُمْ أَعْلَىٰ الْخَلْقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مُخَلَّصٍ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ وَإِنْ كُلُّ سَابِقٍ مُخَلَّصٌ ، وَلِذَلِكَ نَرَى الْجِزَاءَ مُخْتَلِفًا .

١ - فقد قال في الصفات : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ففسر الرزق بالفواكه .

وقال في الواقعة : ﴿وَفَكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلِحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ . فقد ذكر اللحم إضافة إلى الفاكهة . ثم ذكر أنهم يتخبرون الفاكهة واللحم . ولم يذكر في الصفات أنهم يتخبرون ، بل قال : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ . . . ﴿٤٢﴾﴾ فما في الواقعة أعلى .

وقد تقول : ولم قال في الصفات : (فواكه) وقال في الواقعة : (فاكهة)؟

والجواب : أن (الفاكهة) اسم جنس ، وهي أعم وأوسع من كلمة (الفواكه) لأنه يشمل الحبة الواحدة والاثنتين والجمع ، ويشمل عموم الأنواع .

فالتفاحة الواحدة فاكهة وليست فواكه ، والتفاحتان فاكهة وليستا فواكه ، والتفاح فاكهة . وأنواع الفواكه كالتين والرُّمَّان والعنب بمجموعها يقال لها فاكهة .

أما الفواكه فتقال للأنواع .

وإيضاح ذلك أنك تقول للتفاح وحده فاكهة وإن كثر ولا يقال له : فواكه . فإن جمعت معه الرمان والتين والتمر صح أن يقال لها (فواكه) وأن يُقال لها (فاكهة) أيضاً . فالفاكهة تطلق على النوع الواحد وعلى الأنواع ،



وتقال للمفرد والمثنى والجمع . أما الفواكهُ فلا تُطَلَقُ إلا على ما تعدَّد ، ولا تُطَلَقُ على الحَبَّة الواحدة أو الحَبَّتَيْنِ ، ولا على النوع الواحد ، فتكون الفاكهةُ أعَمَّ وأشملَ ويندرجُ تحت اسمِها جميعُ الفواكه .

ولما قال في (الواقعة) : ﴿ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ ﴿١١﴾ عُلِمَ أنها أنواعٌ كثيرة وليست نوعاً واحداً . ولذا يأتي القرآن بـ (الفاكهة) في مواطن السَّعةِ وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ [الرحمن] .

في حين قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوَكُهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المؤمنون] .

فلما ذكر الأرض على العموم قال : (فيها فاكهة) .

ولما ذكر الجناتِ في الأرضِ ذكر الفواكه ، وذلك أنه خصص الفواكه التي في الجنات ، في حين أطلقها في آية الرحمن .

٢ - قال في الصافات : ﴿ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وقال في الواقعة : ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

فذكر أنهم مُقَرَّبُونَ في جنات النعيم ، وهو أعلى من مجرد الإكرام ، لأنه يشمل الإكرام وزيادة .

٣ - قال في الصافات : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وقال في الواقعة : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

فذكر أن السُّرُرَ موضونةٌ ، أي : منسوجةٌ بالذهبِ مُشَبَّكةٌ بما يسرُّ

النَّاطِرَ .



ثم ذكر الاتكاء عليها للزيادة في التَّعْم. ولم يقل مثل ذلك في الصفات.

٤ - قال في الصفات: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

فلم يذكر الطائفين في آيات الصفات وذكرهم في الواقعة زيادة في التَّعْم.

٥ - قال في الصفات: ﴿بِكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

فزاد الأكواب والأباريق على الكأس. ولا شك أن تنوع الأواني إنما هو لتنوع الأشربة وتعددها. فتعمُّ السابقين أعظم وأعلى.

٦ - قال في الصفات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾.

وقال في الواقعة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾.

فذكر في (الصفات): أنها لا تفسدُهم، أو لا تهلكهم، أو لا تغتال عقولهم<sup>(١)</sup> ولا تُسكرهم.

وذكر في (الواقعة): أنهم لا يُصيبُهُم منها صُداغٌ ولا يسكرون، وهذا الشراب لا ينفد. وهذا أتم وأعلى.

فإنه قال في (الصفات): ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ومعنى الغَوْل: الفساد أو الإهلاك أو اغتيال العقول وهو السُّكر. فإن كان بمعنى الفساد والإهلاك فإن نفيه لا ينفي ما دونهُ من الآفات. فإنك إذا قلت: (هذا الشراب لا يُميتُ) فإنه لا ينفي أن يكون فيه بعض أنواع العلل دون الموت.

(١) انظر: روح المعاني ٢٣/٨٨، الكشاف ٢/٦٠١.



وأما في سورة الواقعة فإنه نفى الأذى ، وهو الصُّدَاع ، فانتفاء الأكبر إنما هو من طريق الأولى ، فإذا كانوا لا يصيبهم صُدَاعٌ فمن الأولى أن لا يُصِيبَهُمْ مِنْهَا الْغَوْلُ .

وعلى هذا فإن انتفاء الْغَوْلِ لا ينفي الصُّدَاعَ ، وانتفاء الصُّدَاعِ ينفي الْغَوْلَ . فيكون ما في الواقعة أعلى .

وإذا كان الْغَوْلُ بمعنى اغتيال العقول ، وهو الشُّكْرُ ، فإنه نفى بقوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ شيئاً واحداً عنها ، فإن معنى : ( لا يُنْزَفُونَ ) كمعنى ( لا فيها غَوْلٌ ) ولكن إحداهما صفةُ الخمرة والأخرى صفة شاربها .

وأما في الواقعة فإنه نفى عنها شيئين : الصُّدَاعَ والشُّكْرَ . وهذا أتم .

ثم إنه في الصِّافَاتِ نفى عنهم الشُّكْرَ فقال : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ بفتح الزاي ، أي : لا يسكرون عنها .

وأما في الواقعة فقد نفى الشُّكْرَ والنَّفَادَ فقال : ﴿ وَلَا يُنْزَفُونَ ﴾ بكسر الزاي ، أي : أن هذا الشراب لا يُسَكِّرُ ولا يَنْفَدُ ، فهذا أتم وأكمل .

٧ - قال في الصافات : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْظَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وقال في الواقعة : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

فذكر في الصافات صفة واحدة من صفاتها الجسمية وهي (عِينٌ) .

والعِينُ جمعُ عَيْنَاءٍ ، وهي الواسعة العَيْنِ في جمال .

وذكر في الواقعة صفتين وهما (حُورٌ عِينٌ) والحوُرُ : البيض .

وقال في الصافات : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .



وقال في الواقعة: ﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوِّ الْمَكُونِ ﴾ .

وأنت تحس الفرق بين تشبيه المرأة البيضاء بالبيضة وتشبيهها باللؤلؤة المكنونة .

٨ - وقال في الواقعة: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ (٢٥) ﴿ إِلَّا قِيلاً سَلَمًا سَلَمًا ﴾ (٢٦) .

فنفى سماع الرديء من القول والساقط منه وأثبت الحسن وهو: ﴿ إِلَّا قِيلاً سَلَمًا سَلَمًا ﴾ فكان التَّعْمُّ بالنفي والإثبات .

ولم يذكر مثل ذلك في الصفات .

فناسب (يُنزِفُونَ) بالبناء للمعلوم ما في الواقعة ، و (يُنزَفُونَ) بالبناء للمجهول ما في الصفات .

ومما زاده حسناً قوله في الصفات: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَايَسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ بالبناء للمجهول ، فناسب (يُنزِفُونَ) بالبناء للمجهول .

وقال في الواقعة: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ بالبناء للفاعل ، فناسب (يُنزِفُونَ) بالبناء للفاعل .

فانظر يا هداك الله! كيف ذكر في الواقعة التقريب ، وهو يشمل الإكرام وزيادة ، وذكر السرور وزيادة وهي أنها موضونة ، وذكر التقابل وزيادة وهو الاتكاء ، وذكر الطواف وزيادة وهي الولدان المخلدون ، وذكر الكأس وزيادة وهي الأكواب والأباريق ، وذكر العين وزيادة وهي الحور ، ونفى السكر وزيادة وهي عدم التفاد ، وزاد نفي اللغو والتأثيم وإثبات السلام .

فيا ترى أين تصلح كل من كلمتي (يُنزِفُونَ) و (يُنزَفُونَ) وأين تضعها أنت؟ وهل هذا كلام بشر أو هو تنزيل رب العالمين؟

وأما الجواب عن السؤال الثاني فإن إسناد الطبع إلى الله أشد تمكناً في





القلب من بنائه للمجهول. فما أُسندَ إليه صراحةً يكونُ أثبتَ وأقوى مما لم يسند إليه. وعلى هذا فهو يُسندُ الطبع إلى الله في مواطنِ المبالغة والتأكيد، وبينه للمجهول فيما هو أقلُّ من ذلك. وذلك واضحٌ في الآيتين المذكورتين وهما قوله:

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨٧﴾

[التوبة].

وقوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ [التوبة].

وبالنظر في السياقين يتضح ذلك.

قال تعالى في سياق الآية الأولى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَّاكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ [التوبة].

وقال في سياق الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ آخِبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَرَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ [التوبة].

فأنت ترى أن الآخرين أشدُّ ضللاً وكفراً من الأولين، يدلك على ذلك ما ذكره من صفاتهم وأحوالهم. فإنه لم يذكر في الأولين سوى أنهم



يستأذنون الرسول إذا أنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد، وأنهم يقولون: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة] وعقب على ذلك بقوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ ، في حين ذكر من صفات الآخرين ما يدل على شدة كفرهم وضلالهم وغضب الله عليهم ما لم يذكره في الأولين .

١ - فقد طلب الله ردّ اعتذارهم إذا اعتذروا ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ .

٢ - وطلب أن يخبروهم بعدم تصديقهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ .

٣ - وأن يخبروهم بأن الله تَبَّ المؤمنين بأخبارهم وأحوالهم ﴿قَدْ بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ .

٤ - وطلب من المؤمنين أن يُعْرِضُوا عنهم ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ .

٥ - ووصفهم بأنهم رجسٌ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ .

٦ - وذكر عاقبتهم وسوء مآلهم في الآخرة ﴿وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

٧ - وطلب من المؤمنين ضمناً ألا يَرْضُوا عنهم إذا ما حاولوا استرضاءهم لأن الله غير راضٍ عنهم: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ .

فناسب ذلك إسناد الطبع إلى الله للدلالة على شدة تمكّن الكفر في نفوسهم وقلوبهم ، بخلاف الآية الأخرى .

وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه مما حَسَّنَ بناء الفعل للمجهول أيضاً في الآية الأولى ما قاله فيها (وإذا أنزلت سورة) ببناء (أنزل)



للمجهول<sup>(١)</sup>. فكما أنه لم يسند الإنزال إلى الله تعالى لم يسند الطبع إليه ، فكان بناء الفعل للمجهول في الآية الأولى أنسبَ وبنائُه للمعلوم في الآية الثانية أنسبَ. والله أعلم.

\* \* \*

---

(١) انظر: ملاك التأويل ١/ ٤٧٠.

## الوصف



لقد بحثنا في كتابنا «معاني الأبنية في العربية» وكتاب «التعبير القرآني» جملةً صالحةً مما يتعلّق بالوصف ، وذلك كالاختلاف بين صيغ المبالغة ، والصفة المشبهة ، وصيغ اسم المفعول نحو: عَسِرَ وَعَسِيرٌ وَعَجِيبٌ وَعُجَابٌ ، وَكَفَّارٌ وَكُفُورٌ وغيرها . فلا نعيد القول فيه .

ونريد أن نبحث هنا نمطاً آخر مما لم نبحثه هناك .

١ - قال تعالى : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ [الأنعام] .

وقال : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ [الأنعام] .

فقد قال في الآية الأولى : ﴿ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ وقال في الآية

الثانية : ﴿ مُتَشَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ فما سر ذلك؟ ولم قال في الموضعين : (غير متشابه) فنفي التشابه دون الاشتباه؟

لقد ذكر المفسّرون أن اشتبه وتشابه بمعنى واحد ، كاختصم وتخاصم ، واشترك وتشارك ، واستوى وتساوى ، ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل<sup>(١)</sup> .

والذي يبدو لنا أنهما ليسا بمعنى واحد ، وأن كلّ لفظٍ اختصت بالموطن المناسب لها .

(١) انظر: البحر المحيط ٤/١٩١ ، والكشاف ١/٥٢٠ ، روح المعاني ٧/٢٤٠ .



وإليك كلاً من الآيتين .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ [الأنعام] .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ [الأنعام] .

وبالنظر في سياق كل من الآيتين يتضح الفرق بين التعبيرين .

إن سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۗ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفِكُونَ ﴿٩٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾ [الأنعام] .

وأما سياق الآية الأخرى ففي بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل

الكفر افتراءً على الله وبيان عقائدهم الباطلة .



قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِّمَتْ طُهْرُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ . . . ﴾

[الأنعام] . ويستمر السياق .

فاتَّصَحَ الفرقُ بينَ السِّيَاقينِ .

وقد اتَّسَمَتِ الآيتانِ كلتاهما بِسِمَاتِ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ كُلُّ آيَةٍ مِنْهُمَا . فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته ، والأخرى في بيان ما يُؤكَلُ من الفواكه والزروع . وإليك إيضاح ذلك :

١ - قال تعالى في الآية الأولى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ فبدأ بمرحلة ما قبل الإنبات ، وبيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ . ولم يذكر ذلك في الآية الثانية .

٢ - ذكر في الآية الأولى أَنَّهُ أَخْرَجَ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ الْعَمُومِ



ولم يخصّصه بنوع معيّن من أنواع النبات ، وهو مما يدلُّ على القدرة الباهرة .

ولم يذكر مثل ذلك في الآية الثانية .

٣ - وذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه خَصِراً مشيراً إلى تسلسل عملية التَّمُؤِّ والإنبات .

ولم يذكر مثل ذلك في الآية الثانية .

٤ - ذكر في الآية الأولى أنه أخرج منه حباً متراكباً .

ولم يُشِرْ إلى الحُبوب في الآية الثانية .

٥ - إن القصدَ الأوَّلَ في الآية الأولى بيانُ قدرة الله البالغة - كما ذكرنا -

فقال : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ فذكر طَلْعَهَا وقِنْوَانَهَا ، في حين كان المقصدُ الأوَّلُ في الآية الثانية ذكرَ المطعومات فقال : ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ ﴾ فذكر ما يُؤْكَلُ من ثمار الزرع واختلاف أنواعه وطُعومه ، ولم يُشِرْ إلى الطَّلَعِ والقِنْوَانِ .

٦ - قال في الآية الأولى : ﴿ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَيْنَعِهِ ﴾ وهو نظر

تَدَبُّرٍ وتأملٍ ، في حين قال في الآية الثانية : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ فأنت ترى أن كلَّ تعبيرٍ مناسبٌ لسياقه .

وانظر من ناحية أخرى إلى تناسب قوله : ﴿ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ ﴾ مع قوله :

﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ .

٧ - قال في الآية الأولى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهي الآيات

الدَّالَّةُ على قدرته وبديع صنعِهِ .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .



فَاتَّضَحَ الْفَرْقُ بَيْنَ السِّيَاقَيْنِ وَالْآيَتَيْنِ .

ونعود الآن إلى أصل المسألة وهو أنه لماذا قال في الآية الأولى :  
﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍ ﴾ ، وقال في الآية الثانية ﴿ مُتَشَكِّهَا وَغَيْرَ مُتَشَكِّهِ ﴾ ؟  
إن الفعل (اشتَبَهَ) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال .

وإن (تشابه) أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشئين أو الأشياء  
والمشاركة بينها في معنى من المعاني ، سواءً أدَّى ذلك إلى الالتباس أم لم  
يُؤدِّد .

جاء في «القاموس المحيط» : «تَشَابَهَا وَاشْتَبَهَا : أَشْبَهَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ  
حَتَّى التَّبَسَا . . . وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ وَمُشَبَّهَةٌ كَمُعْظَمَةٍ : مُشْكِلَةٌ» (١) .

وجاء في «تاج العروس» : «أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ وَمُشَبَّهَةٌ كَمُعْظَمَةٍ ، أَي :  
مُشْكِلَةٌ مُلْتَبِسَةٌ يَشْبَهُ بَعْضُهَا بَعْضًا» (٢) .

وجاء في «لسان العرب» : «اشْتَبَهَ عَلِيٌّ وَتَشَابَهَ الشَّيْثَانُ وَاشْتَبَهَا : أَشْبَهَهُ  
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ . وَفِي التَّنْزِيلِ : ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ ﴾ . . .  
وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ وَمُشَبَّهَةٌ : مُشْكِلَةٌ يَشْبَهُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

وَشَبَّهَ عَلَيْهِ : خَلَطَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ حَتَّى اشْتَبَهَ بغيره . . .

﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِّهًا ﴾ [البقرة] فَإِنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ قَالُوا : مَعْنَى  
(متشابهاً) : يَشْبَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْجُودَةِ وَالْحُسْنِ . وَقَالَ الْمُفْسِرُونَ :  
يَشْبَهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الصُّورَةِ وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ . . .

(١) القاموس المحيط (الشبه) ٤/٢٨٦ .

(٢) تاج العروس (أشبه) ٩/٣٩٣ .





أبو العباس عن ابن الأعرابي... قال: وسألتُه عن قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ فقال: ليس من الاشتباه المُشكَل إنما هو التَّشَابُه الذي هو بمعنى الاستواء.

قال اللَّيْثُ: المُشْتَبِهَاتُ مِنَ الْأُمُورِ: المُشْكَلَاتُ...

وَأَشْتَبَهَ الْأَمْرُ: إِذَا اخْتَلَطَ، وَاشْتَبَهَ عَلَيَّ الشَّيْءُ<sup>(١)</sup>.

وجاء في «المصباح المنير»: «أَشْتَبَهَتِ الْأُمُورُ وَتَشَابَهَتْ: التَّبَسَّتْ فَلَمْ تَمَيِّزْ وَلَمْ تَطْهَرْ. وَمِنْهُ: اشْتَبَهَتْ الْقِبْلَةَ وَنَحْوَهَا... وَتَشَابَهَتْ الْآيَاتُ تَسَاوَتْ أَيْضًا... فَالْمِشَابَهَةُ الْمَشَارِكَةُ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، وَالْإِشْتَبَاهُ الْإِلْتِبَاسُ»<sup>(٢)</sup>.

فانضح مما ذكرناه أن (أَشْتَبَهَ) أكثر ما يفيدُ الالتباس والإشكال كقولهم: (اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ).

وَأَنَّ (تَشَابَهَ) أَكْثَرُ مَا يُفِيدُ الْمَشَارِكَةَ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، سِوَاءِ أَدَى إِلَى الْإِلْتِبَاسِ أَمْ لَمْ يُؤَدِّ.

ومعلوم أن الذي يستطيع أن يُشَبَّهَ الْأُمُورَ حَتَّى تَلْتَبَسَ عَلَى النَّازِرِ أَوْ الْمَتَأَمِّلِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَهَا أَقْدَرُ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مَجْرَدَ تَشَابَهٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. وَأَنَّ الْأُمُورَ الْمَشْتَبَهَةَ كَلِمَا دَقَّتْ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالْبَرَاعَةِ.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الأمور المشتبهة تحتاجُ إلى زيادةٍ نظريٍّ وتأَمُّلٍ لإدراك حقيقة أمرها. فوضع (مُشْتَبِهًا) فِي السِّيَاقِ الدَّالُّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَآيَاتِهِ وَفِي مَوْضِعِ الْأَمْرِ بِالنَّظَرِ ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ دُونَ الْمَوْضِعِ

(١) لسان العرب (شبه) ٣٩٨/١٧.

(٢) المصباح المنير ٣٠٤.



الآخر مما ليس في هذا السياق. فكان كلُّ تعبيرٍ أنسبَ في سياقه الذي ورد فيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني وهو أنه: لِمَ قال في الموضوعين: ﴿وَعَيْرٌ مُتَشَبِهٌ﴾ فنفي التشابه دون الاشتباه؟

فذلك لأن نفي التشابه ينفي الاشتباه، ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه. وإيضاح ذلك أنك إذا قلت: (هذان الشيئان غير متشابهين) فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى، وذلك لأن الاشتباه إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه.

أما إذا قلت: (هذان الشيئان غير مُشْتَبِهَيْنِ) فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما ولكنك لم تنف التشابه، فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع في اللبس.

فلو قال في الآية الأولى: (مشتبهاً وغير مشتبه) لكان نفي الاشتباه ولم ينف عنه التشابه. فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين في وجه من الوجوه فأراد أن ينفي ذلك فقال: ﴿وَعَيْرٌ مُتَشَبِهٌ﴾ وهذا أدلُّ على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابهة وبعضها مختلف أدلُّ على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة. والله أعلم.

٢ - قال تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة].

وقال: ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر].

فذكر صفة النخل في آية القمر فقال: ﴿نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ وأنها في الحاقة، فقال: ﴿نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾، فما سبب ذلك؟ وهل يصحُّ وضع إحداهما مكان الأخرى؟



لقد ذكر علماء العربية والمفسرون أن النخل اسمُ جنس يُدَكَّرُ نظراً للفظ وَيُوَنَّثُ نظراً للمعنى ، وإنما وضع كل صفة بمكانها مراعاةً للفاصلة<sup>(١)</sup> .

والذي أراه أن ذلك مراعى فيه المعنى أيضاً وليس للفاصلة وحدها ، وإن كانت الفاصلة تقتضي أن تكون كلُّ لفظة بمكانها .

إن العرب قد تَوَنَّثُ للكثرة وتُدَكَّرُ للقلة ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ [يوسف] ، و ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا ﴾ [الحجرات] ، فذكر (قال) لأن النسوة قلة ، وأنث (قالت) لأن الأعراب كثرة<sup>(٢)</sup> . وقد تَوَنَّث للمبالغة نحو : راوية وداهية<sup>(٣)</sup> .

والنخل في آية الحاقة أكثر منه في آية القمر يدل على ذلك السياق .

قال تعالى في الحاقة : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ .

وقال في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَاكِ وَنَذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مَنْفَعِرٍ ﴿٢٠﴾ .

ويتضح من سياق الآيات ما يأتي :

١ - أنه قال في القمر : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ .

وقال في الحاقة : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

(١) انظر : البحر المحيط ١٧٩ / ٨ ، روح المعاني ٨٧ / ٢ ، الكشاف ١٨٤ / ٣ .

(٢) انظر : معاني القرآن ٤٣٥ / ١ .

(٣) انظر : شرح التصريح ٢٨٨ / ٢ ، شرح ابن يعيش ٩٨ / ٥ ، همع الهوامع ١٧٠ / ٢ .



فزاد في وصف الريح في الحاقة فقال: ﴿عَاتِيَةٌ﴾ ، فهي أشدُّ مما في القمر ، وإذا كانت كذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر.

٢- قال في القمر: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ .

وقال في الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فذكر

في القمر أنه أرسلها عليهم في يوم ، وذكر في الحاقة أنه سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام ، فزاد في وقت التدمير والعذاب . ولا شك أن طول المدة يقتضي تدميراً أكثر وأبلغ . فالريح تقتلع وتدمر في سبع ليالٍ وثمانية أيام أكثر مما تفعله في يوم . فزاد في النخل المُقتلَع في الحاقة .

٣- ولما زادت الريح عتوّاً وأمدأً في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كُلَّهم فلم تُبَقِ منهم أحداً فقال: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ ولم يقل مثل ذلك في القمر .

٤- أن النخل المنقعر معناه المنخلع عن مغاريسه الساقط على الأرض<sup>(١)</sup> .

ومعنى (خاوية): خربة<sup>(٢)</sup> . وقيل: خَلَّتْ أعجازها بلياً وفساداً<sup>(٣)</sup> . وقيل: «الخاوية معناها معنى المنقلع . وقيل لها إذا انقلعت: خَاوِيَةٌ ، لأنها خَوَتْ من مَنبُتها التي كانت تنبت فيه ، وخوى منبُتها منه»<sup>(٤)</sup> .

فالنخل الخاوية تشملُ النخلَ المنقعر وزيادة . فكل نخلٍ منقعرٍ هو خاوٍ وليس كلُّ خاوٍ منقعرًا .

(١) انظر: روح المعاني ٢٧/٨٧ ، البحر المحيط ٨/١٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤١٢ ، فتح القدير ٥/٢٧٤ .

(٣) البحر المحيط ٨/٣٢١ .

(٤) لسان العرب (خوى) ١٨/٢٦٩ .

فأنت الخاويةَ لأنه أكثرُ من المنقعر وأن دماره أبلغ ، وجعلها في سياق الدمار الشامل .

ومن هذا يتبين :

١ - أن الخاوي أكثر من المنقعر .

٢ - أنت الخاوي فقال : ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ فزاد كثرةً ومبالغةً ، لأن التأنيث قد يأتي للكثرة والمبالغة .

٣ - وضع النخل الكثير المدمر مع الريح المُتَّصِفَة بزيادة التدمير ، وهي صفة العُتُوِّ ﴿ بَرِيحٌ صَرَّصِرَ عَاتِيَةٌ ﴾ .

٤ - ووضعه أيضاً مع زيادة وقت التدمير وهو سبع ليال وثمانية أيام بخلاف ما دمر في يوم .

٥ - ووضعه مع استئصال القوم فلم ينبج منهم أحدٌ .

فأنت ترى أنه لو لم تكن الفاصلةُ تقتضي ما وضع لاقتضاه المعنى ، فزاد حُسناً على حُسْنٍ ، فلا يصح وضع إحداهما مكان الأخرى والله أعلم .

\* \* \*

## الإفراد والتثنية والجمع



قد يستعمل القرآن الكريم المفرد في موطن ويستعمل المثنى في موطن آخر يبدو شبيهاً بالأول. وقد يستعمل جمعاً في موطن ويستعمل جمعاً آخر للمفردة نفسها في موطن آخر ، وقد يستعمل المفرد في موطن هو من مواطن الجمع ، وما إلى ذلك من المواطن التي تستدعي التأمل والنظر .

١ - فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء] .

وقوله : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه] .  
وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف] .

فقال في آية الشعراء : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بالإخبار بالمفرد عن المثنى .

وقال في آية طه : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ بالإخبار بالمثنى عن المثنى .  
وقال في الزخرف : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بالإخبار بالمفرد عن المفرد .

وبالرجوع إلى سياق الآيات يَتَّضِحُ سبب الاختلاف .  
ففي سورة الشعراء ورد ذِكْرُ لهرون مع موسى ، غير أن القصة مَبْنِيَّةٌ على الوحدة لا على التثنية ، فقد قال على لسان موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَآتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ثم ينتقل إلى الوحدة .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

ويستمر النقاش مع موسى وحده :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ثم يُوجِّهُ فرعونُ الكلامَ إلى موسى مُهدداً له :

﴿ قَالَ لَنْ أُتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

قال له موسى : ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

قال : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

في حين بنى الكلام في سورة طه على التثنية .

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخْوُكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ ﴾ .

ويستمرُّ الكلامُ على التثنية .



وإليك الفرق بين السّاقين :

في الشعراء

في طه

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ ﴾ -

﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا ﴾ -

﴿ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ وَأَنْ يَطْغَى ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ

عَلَيْمٌ ﴾ ﴿٣١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ

يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا

أَرْضَكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴾ ﴿٣٣﴾

فلما بنى الكلام في (طه) على التثنية قال: ﴿ إِنَّا رَسُولٌ رَبِّكَ ﴾ بتثنية الرسول. ولما بنى الكلام في الشعراء على الوحدة مع إشارات إلى هرون قال: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بإفراد الرسالة وتثنية الضمير.

ولما لم تكن آية إشارة إلى هرون في الزخرف قاله بإفراد الضمير والرّسول: ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

فجعل كلّ تعبير في موطنه الذي هو أليقُ به.

٢ - ومن ذلك استعمال (طفل) و (أطفال)، فهو يستعمل الطفل والأطفال للجمع. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ ﴿٥﴾ [الحج]، وقال: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ ﴿١٧﴾ [غافر]، وقال: ﴿ أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ﴿٣١﴾ [النور].

في حين قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ ﴿٥٩﴾ [النور] فاستعمل الطفل والأطفال للجمع فما سبب ذلك؟ ولماذا خصّ كلّ موطن بما استعمل فيه؟



إن العرب قد تستعمل كلمة (طفل) للمذكر والمؤنث ، المفرد والمثنى والجمع فتقول: جاريةٌ **طِفْلٌ** وجاريتانِ **طِفْلٌ** و**جَوَارِ** **طِفْلٌ** ، و**غِلامٌ** **طِفْلٌ** و**غِلمانٌ** **طِفْلٌ** . كما تستعملها على القياس فتقول: **طِفْلٌ** و**طِفْلةٌ** و**طِفْلانٍ** و**طِفْلَتانٍ** و**أطفالٌ** و**طِفْلاتٌ**<sup>(١)</sup> . فاستعمال (الطفل) للجمع معروف عند العرب وبه **جَزَتْ** ألسنتهم . أما سبب تخصيص كل موطنٍ بالاستعمال الذي ورد فيه فهذا ما يظهر من السياق .

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ **يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُنَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ ۗ** ﴾ .

وقال في سورة غافر: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُنَوِّفُ مِّن قَبْلُ ۗ** ﴾ .

وقال في سورة النور: ﴿ **يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۖ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ** ﴾ .

فقال في آية الحج: ﴿ **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ ، وقال في آية غافر: ﴿ **ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾ ، في حين قال في آية النور: ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ** ﴾ ، ذلك أن آتي الحجِّ وغافر تتكلمانِ على خَلْقِ الإنسان من **تُرَابٍ** ثم من **نُطْفَةٍ** ثم من **عَلَقَةٍ** ، فبني الكلام على خلق الجنس وليس على

خلق الأفراد، فلم يقل خلقناكم من نطفٍ ثم من علقاتٍ ثم من مضغاتٍ ، بل بناه على المفرد الذي يفيد الجنس . والنُّطْفَةُ والعلَقَةُ والمُضْغَةُ تُخْرَجُ طفلاً لا أطفالاً فناسب ذلك التعبير بالجنس فقال : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ في آية الحج ، و ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ في آية غافر فكلاهما متشابهة . ومما زاد ذلك حسناً أنّ كلمة (طفل) تُستعملُ في كلام العرب للمفرد والجمع فكانت أنسبَ من كلِّ ناحية .

وأما آية النور فمبنية على الجمع لا على الأفراد ولا على الجنس ، وهي مبينة لعلاقات الأفراد في المجتمع فقال : ﴿ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَلِدِّنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ .

والذين لم يبلغوا الحُلُم هم الأطفال وليس طفلاً واحداً ، ولذلك قال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ﴾ بصيغة الجمع ، فناسب ذلك ما قبله ولا يناسبه الأفراد ، لأنَّ الكلام على الجمع .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن آية الثور في الكلام على العلاقات الاجتماعية وهذا يتطلَّب مجتمعا لا فرداً فناسب الجمع أيضاً .

وقد تقول : إنك ذكرت أن كلمة (طفل) قد تكون للجمع ، فلماذا كانت كلمة (أطفال) أنسبَ ههنا؟

والجواب : أن كلمة (طفل) قد تكون للمفرد ، وهي في المفرد أشهر منها في الجمع ، في حين أن سياق آية الثور ليس فيه احتمالُ إفرادٍ ، فناسب التعبير موطنه من كلِّ ناحية .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ [النور] فيتضح سببه من السياق أيضاً . قال تعالى : ﴿ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ وَلَا يُدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ

أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّلَاعِيكِ  
غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴿٦٦﴾

[النور].

ونود هنا أن نسجل الملاحظات الآتية:

١ - أن كلمة (الطفل) اسمُ جنس، فهو يشملُ كلَّ الأطفال. تقولُ:  
(الطفل لا يعي) وتقصدُ به عمومَ الأطفال، وبهذا المعنى يكونُ أشملَ من  
الجمع، فإنك إذا قلت: (لا أطفال في الدَّار) لا تنفي أن يكونَ طفلاً أو  
طفلان، فإن قلت: (لا طفلَ في الدَّار) نفيتَ عمومَ الجنس: الواحد  
والاثنين والجمع.

٢ - أن كلمة (طفل) قد تصفُ بها العربُ الواحدَ والمثنى والجمع،  
المذكَّرَ والمؤنَّثَ كما ذكرنا. فهذا المعنى تشملُ الواحدَ والاثنين  
والجمع، المذكَّرَ والمؤنَّثَ.

٣ - أن كلمة (طفل) في الآية أشملُ وأعمُّ من جميع المذكورين، ذلك  
أن البعلَ مختصُّ بالمرأة، فهو يخصُّ واحداً بعينه والآباء كذلك، وكذلك  
أبو البعل وأبناء البعل وأبناء المرأة وكذلك الباقي، فإنه إما مختصُّ بأقرباء  
المرأة أو ملكُ يمينها.

أما الطفل فهو عام غيرُ مختصِّ بقرابة، بل يشملُ جميعَ الأطفال،  
فناسبَ استعمالَ الجنس، لأنه يُرادُ به العموم.

٤ - أن المذكورين في الآية أشخاص مُتعدِّدو الإحساس والمواقف  
بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكلُّ واحد له إحساسٌ خاصٌّ به، وأما  
الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء فموقفهم واحدٌ متجانسٌ،  
وهو عدمُ التمييز، فكانهم شخصٌ واحد لا تمايزَ بينهم، فأفردَهم  
وجعلهم كأنهم شخصٌ واحد.



فكان الإفراد ههنا أنسب، والله أعلم.

٥ - ومن ذلك استعمال (بني) و (أبناء) ، فهو يستعمل مرة (بني) ومرة (أبناء) وذلك نحو قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ ﴿٢٦﴾ .

وقوله في الأحزاب: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْرَبِينَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ﴿٥٥﴾ .

وههنا سؤالان:

الأول: لم قال في آية النور: ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ .  
وقال: ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فاستعمل مرّة (بني) ومرّة (أبناء)؟

والسؤال الثاني: لم قال في آية الأحزاب: ﴿وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ولم يقل: ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كما قال في سورة النور؟

والجواب عن السؤال الأول: أن لفظة (بني) تدلُّ على الكثرة ، وأنها تشمل أكثر مما يشملهُ الأبناء نحو بني آدم ، وبني إسرائيل ، ولذلك يستعمل القرآن (بني آدم) لمجموع البشر ، و(بني إسرائيل) لهؤلاء القوم على مرّ العصور ، ولم يستعمل أبناء آدم ولا أبناء إسرائيل .

وبنو الإخوان وبنو الأخوات هم أكثر المذكورين في الآية. فإن الإخوان قد يكونون إخواناً أشقاءً وقد يكونون إخواناً من الأم ، وقد

يكونون إخواناً من الأب ، وحكم أبناء هؤلاء جميعاً واحداً فيما ذكر .  
وكذلك الأخوات ، فإنهن قد يُكُنَّ أخواتٍ شقائق ، وقد يكنَّ أخواتٍ  
لأمٍّ وأخواتٍ لأبٍ ، وحكم هؤلاء جميعاً واحداً أيضاً .  
وهؤلاء أكثر من أبناء المرأة وحدها ، وأكثر من أبناء البُعولة وحدهم ،  
فاستعمل (أبناء) لما هو أقلُّ ، و (بني) لما هو أكثرُ .

جاء في «روح المعاني»: «والمراد بالإخوان ما يشمل الأعيان: وهم  
الإخوة لأبٍ وأمٍّ واحدة، وبني العلات: وهم أولاد الرّجل من نسوة  
شَتَّى، والأخيار: وهم أولاد المرأة من آباءٍ شَتَّى، ونظير ذلك في  
الأخوات. واستعمل (بني) معهم دون (أبناء) لأنه أوفق بالعموم، وأكثرُ  
استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخص من عدم اتحاد صنف قرابتهم  
فيما بينهم. ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع بني آدم وبني تميم، وقلما تسمعُ  
أبناء آدم وأبناء تميم .

وفيما نحن فيه قد يجتمع للمرأة ابنُ أخٍ شقيق وابنُ أخٍ لأبٍ وابن أخٍ  
لأمٍّ. بل قد يجتمع لها أبناءُ أخٍ شقيق ، أو إخوة أشقاء أعيان ، وبنو علاتٍ  
وأبناء أخٍ أو إخوة لأبٍ ، وأبناء أخٍ أو إخوة لأمٍّ كذلك .

ويتأتى مثل ذلك في ابن الأخت ، لكن لا يتصور هنا بنو العلات ،  
كما لا يتصور في أبناء الأخ الأخياف ، والاجتماع في أبنائهنَّ وأبناء  
بُعولتهنَّ وإن اتَّفَق لكنه ليس بتلك المثابة<sup>(١)</sup> .

أما الجواب عن السؤال الثاني ، وهو أنه لمَ قال في آية الأحزاب:  
﴿ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ ﴾ ولم يقل: (بني إخوانهن) أو (بني  
أخواتهن) كما قال في آية النور ، فذلك لأن آية الأحزاب في نساء النبي ،



فأبناء إخوانهنَّ وأبناء أخواتهنَّ أقلُّ مما في آية النور. فاستعمل لذلك (أبناء) والله أعلم.

٤ - ومن ذلك استعمال النخل والنخيل ، فقد يستعمل القرآن أحياناً (النخل) ويستعمل أحياناً (النخيل) وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ [٩٩] [الأنعام] .

وقوله : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [١٦] [ق] .

في حين قال : ﴿ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [١١] [النحل] .

وقال : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [٦٧]

[النحل] . فما الفرق بينهما؟

لقد ذهب السهيليُّ إلى أن كلمة (النخيل) تفيدهُ الكثرة، وذلك لأنها تتناولُ الصغيرَ والكبيرَ ، أما النخلُ فهو خاصٌّ بالمُثمرِ ، وعلى هذا يكونُ النخلُ أقلَّ عدداً من النخيلِ .

جاء في «البرهان»: «قال السهيلي في «الروض الأُنْف»: إذا قلت:

عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغيرَ والكبيرَ من ذلك الجنس . قال تعالى :

﴿ وَزَرْعٌ وَمِنْخِيلٌ ﴾ [الرعد] ، وقال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [٤٦] [فصلت] .

وحين ذكر المخاطبينَ منهم قال : (العباد). ولذلك قال حين ذكر

المُثمرِ<sup>(١)</sup> من النخيل : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ [١٦] [ق] ، و﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ

مُنْفَعِرٍ ﴾ [٢٠] [القمر] . فتأملِ الفرقَ بينَ الجمعِينِ في حكم البلاغة واختيار

الكلام<sup>(٢)</sup> .

(١) في (البرهان): الثمر، وما أثبتناه أشبه بالصواب .

(٢) البرهان ٢١/٤ .

والذي أراه العكس ، فإنَّ النخل أكثر من النخيل ، وذلك أن النخل اسم جنس جمعي ، والنخيل جمع ، واسمُ الجنس أشملُّ وأعمُّ من الجمع كما قرَّره علماء اللغة ، وكما هو في الاستعمال القرآني ، ذلك أن اسمَ الجنس يشملُ المفردَ والمثنى والجمع ، ويقعُ على القليل والكثير ، فيصح أن يقول من أكلَ تمرَةً واحدةً: (لقد أكلتُ التَّمْرَ) ، ولا يصحُّ أن يقول: أكلتُ تمرتينِ ولا تمرَاتٍ ولا تُموراً. ويصحُّ أن يقول من شاهد نخلةً واحدةً أو نخلتين: (لقد شاهدت النَّخْلَ) ، ولا يقول: شاهدت النَّخِيلَ ولا النَّخَلَاتِ .

جاء في «شرح الرضي على الشافية»: «اعلم أن الاسم الذي يقع على القليل والكثير بلفظ المفرد ، فإذا قصد التنصيص على المفرد جيء فيه بالتاء ، يسمى باسم الجنس . . .

وأما المعنى فلوقوع المجرّد من التاء منه على الواحد والمثنى أيضاً ، إذ يجوزُ لك أن تقول: أكلتُ عِنْباً أو تفاحاً ، مع أنك لم تأكلِ إلاّ واحدةً أو اثنتين . بل قد يجيءُ شيءٌ منه لا يُطلقُ إلا على الجمع ، وذلك من حيث الاستعمال لا من حيث الوضع ، كالكَلِمِ والأَكَمِ وهو قليلٌ .

فنقول: مثل هذا الاسم إذا قصدت إلى جمع قَلْتِهِ جمعتهُ بالألف والتاء ، وإذا قصدت الكثرة جَرَدْتَهُ من التاء ، فيكون المجرّدُ بمعنى الجمع الكثير ، نحو: نملةٌ ونَمَلٌ ونملاتٍ<sup>(١)</sup> .

وجاء في «شرح الرضي على الشافية»: «ويخرج أيضاً - يعني عن الجمع - اسمُ الجنس ، أي: الذي يكون الفرق بينه وبين مفردِهِ بالتاء ، نحو: تَمْرَةٌ وتَمْرٍ ، أو بالياء نحو: رُومِيٌّ ورُومٍ ، وذلك لأنها لا تدل على



أحاد اللفظ ، إذ اللفظ لم يوضع للأحاد ، بل وُضِعَ لما فيه الماهية المعينة سواءً كان واحداً أو مثنيّاً أو جمعاً . . .

إن اسم الجنس يقع على القليل والكثير ، فيقع [على] (١) التَّمْرَةِ والتَّمْرَتَيْنِ والتَّمْرَاتِ ، وكذا الرُّومِ . فإن أكلتُ ثمرةً أو تمرتين وعاملت رومياً أو روميينِ جاز لك أن تقول: أكلتُ التَّمْرَ وعاملتُ الرُّومَ . ولو كانا جَمْعَيْنِ لم يجز ذلك ، كما لا يقع رجالٌ على رَجُلٍ ولا رَجُلَيْنِ (٢) .

وأما ما ذكره السهيلي في «الروض الأنف» ففيه نظر من حيث اللغة ، ومن حيث الاستعمال القرآني ، فإن الله كما قال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت] قال: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ [غافر] ، وكما قال: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق] فذكر التَّمْرَ فإنه قال: ﴿ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنَفْصِلٌ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ [الرعد] وهو مثمرٌ أيضاً . وقال: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل] فالنَّخِيلُ يقال للمثمر وغيره ، وكذلك النَّخْلُ .

أما الفرق بينهما فما ذكرناه: وهو أن النَّخْلَ أعمُّ وأشملٌ من النَّخِيلِ ، لأنه اسمُ جنسٍ جمعي ، وهذا ما قرّره علماء اللغة ويؤيده استعمالُ القرآني . يدلُّ على ذلك أن القرآن أورد (النخيل) في ثمانية مواضع ، وهي فيها لا تفيده الشمول .

فقد قال: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ ﴾ [البقرة] .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) شرح الرضي على الشافية ١٧٨/٢ .



وقال: ﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ﴾ ﴿٣٤﴾ [يس].

فأنت ترى في هذه الآيات الأربع أنه جعل النخيل في جناتٍ ، فلا يشمل ما في غير الجناتِ ، فلا تدخل فيها النخلة الواحدة أو النخلتان وقليل النخل.

وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَةٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ﴿٤﴾ [الرعد].  
فقال: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ فخرج ما لم يُسَقَ بماء واحد.

وقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ﴿٢٧﴾ [النحل]. فخرج منه ما لم يُتَّخَذَ منه السُّكْرُ.

أما النخل فهو عامٌ يشمل الصغيرَ والكبيرَ ، المثمرَ وغيره ، سواء كان في جنات أم في غيرها ، وسواءً كانت نخلة واحدة أم أكثر.

قال تعالى في وصف الجنة: ﴿فِيهَا فَتْكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ﴿١٨﴾ [الرحمن].  
ونخل الجنة كثيرٌ كثيرٌ.

وقال: ﴿أَتَذَرُونَ فِي مَا هَلْهَنَاءَ أَمِينٍ﴾ ﴿١٤٣﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ ﴿١٤٨﴾ [الشعراء].

والنخل ههنا يشمل ما في الجناتِ وغيرها.



وقال: ﴿ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِّهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ [الرحمن].

وهو يشمل جميع النخل سواء كان في جنات أم لم يكن.

وقال: ﴿ نَزَعُ النَّاسَ كَانْتَهُمُ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القمر].

وقال: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَى كَانْتَهُمُ أَعْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة].

وقال: ﴿ وَلَاصَلْبَتِكُمْ فِي جُدُوعِ التَّخْلِ ﴿٧﴾ ﴾ [طه].

وقال: ﴿ وَالتَّخْلَ بَاسِقَتٍ لَهَا طَلْعُ نَضِيدٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق].

فأنت ترى أنه لم يُخصَّص النخل بشيء، فهو أعمُّ من النخيل وأشملُّ.

وقد تقول: ولكن القرآن قد يستعملهما استعمالاً واحداً، وذلك نحو

قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ

وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالتَّخِيلَ

وَالْأَعْنَبَ وَمَنْ كَلَّ الشَّمْرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وقوله في سورة عبس: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنُونَا وَتَخَلًّا ﴿٢٩﴾ وَحَدَّاقٍ غَلْبًا ﴿٣٠﴾

وَفَكِّهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فاستعمل التَّخْلَ والتَّخِيلَ لما يخرجُ من الأرض على وجه العموم،

ولم يُخصَّصِ النخيلَ بشيء.

والحق أن السياق مختلف وأن (النخل) في عبس أكثر من (النخيل)

في النحل. وإليك ما يوضح ذلك:

١ - أنه قال في النحل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿١٠﴾ ﴾.

وقال في عبس: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾.



والصبُّ أكثرُ من الإنزال ، علاوة على أنه أكَّده بقوله : ﴿ صَبًّا ﴾ .

٢ - جعل الماءَ في النحلِ للشَّرابِ والشَّجَرِ فقال : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ .

في حين خَصَّصَ الماءَ في عِيسٍ للطَّعامِ ولم يذكر الشرابَ . فالماءُ المعدُّ للزَّراعةِ في عِيسٍ أكثرُ ، فإنَّه لم يُخَصَّصْ قِسمًا منه للشربِ ، بل جعله للطعامِ خاصَّةً .

٣ - ثم إنَّ المتتوجاتِ في عِيسٍ أكثرُ ، فقد ذكر في النحلِ : الزرعُ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمراتِ .

وذكر في عِيسٍ الحَبَّ والعنَبَ والقُضْبَ والزيتونَ والنخْلَ والحدائقَ الغُلبَ ، وهي الملتفَةُ الكثيرةُ الشجرِ ، والفاكهةُ والأبَّ ، فلما زاد في الماءِ المخصَّصِ للزَّرعِ في عِيسٍ ، زادت المتتوجاتِ في النوعِ والكميةِ .

٤ - ذكر النخيلَ والأعنابَ بصورةِ الجمعِ في النحلِ .

وذكر النَّخْلَ والعِنَبَ بصورةِ اسمِ الجنسِ الجمعيِّ في عِيسٍ وهو أكثرُ .

٥ - قال في النحلِ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ﴿١٢﴾ ﴾ بإسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ الغيبةِ .

وقال في عِيسٍ : ﴿ أَنَا صَبِينَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا ﴾ ، بإسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ المتكلمِ بصيغةِ الجمعِ للتعظيمِ . وهذا يقتضي الزيادةَ في التَّفَضُّلِ على الإنسانِ فيما ذكر .

٦ - ثم انظر كيف أنه لما زاد في الكميةِ والأنواعِ في عِيسٍ جاء بضميرِ الجمعِ فقال : (أنا . صبيننا . شققنا . فأنبتنا) .



وجاء بضمير الإفراد في النحل .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق] .

فاستعمل (النخل) في آية (ق) ولم يستعمل (النخيل) كما في النحل .  
ويَتَضِحُّ سببُ ذلك في النظر في الآيتين :

١ - فقد أسندَ إنزالَ الماءِ في (ق) إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم (ونزلنا) ، في حين أسنده في النحل إلى ضمير الغائب كما أسلفنا . والإسناد إلى المتكلم يقتضي زيادة التَّفَضُّلِ والإحسان .

٢ - قال في النحل : ﴿ أَنْزَلَ ﴾ ، وقال في (ق) ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ بالتضعيف للدلالة على التكثير . فالماءُ في (ق) أكثرُ .

٣ - قال في النحل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ .  
وقال في (ق) : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا ﴾ .

فوصف الماء في (ق) بأنه مبارك ولم يصفه بذلك في النحل .  
والمبارك هو الكثيرُ الزائدُ ، فإن البركة هي : التَّمَاءُ والزيادة<sup>(١)</sup> .

فما في النخل يصدق على الإنزال القليل والكثير ، بخلاف ما في (ق) .

٤ - جعل الماء في النحل للشَّرابِ والشَّجَرِ والرِّزْقِ ، في حين خصَّه في (ق) بالإنبات . فجعل الماء الكثيرَ للرِّزْقِ خاصَّةً ، وهذا يقتضي زيادةَ المنتوجات الزراعية في (ق) على ما في النحل ، ومن هذه المنتوجات النخلُ .

وهذا نظير ما ذكرناه في النحل وعبس .

(١) انظر : لسان العرب (برك) ١٢ / ٧٥ ، القاموس المحيط (البركة) ٣ / ٢٩٣ .

٥ - لقد قسم الماء في النحل على ثلاثة أشياء: الشراب وما يأكله الإنسان وما يأكله الحيوان ، فقال: ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ، أي: تَرَعُونَ ماشيتكم . وقال: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ ﴾ ، وهو عامٌّ يأكله الإنسان والحيوان .

في حين جعل الماء الكثير في (ق) لما يأكله الإنسان فقال: ﴿ رَزَقًا لِلْعِبَادِ ﴾ .

وهذا يقتضي زيادة المنتوجات من هذا النوع من الزرع ، فكان ما في (ق) أكثر .

فلما ضاعف في التنزيل وأسنده إلى نفسه وبارك في الماء وخصه بإنبات ما يأكله الإنسان، زاد في الإنتاج في (ق) فقال: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ بصيغة اسم الجنس الجمعي .

ولما لم يقل مثل ذلك في النحل قال: ﴿ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ ﴾ . فذكر النخل في مواطن التكثير .

فدل ذلك على أن النخل أعمُّ وأشمل من النخيل .

ثم انظر كيف أنه لما كان المقام في سورة (ق) مقام ذكر الزينة والجمال فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ . فذكر زينة السماء وبهجة الزرع في الأرض وذكر جمال النخل فقال: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ ﴿١٠﴾ وهو صورةٌ جميلةٌ من صور النخل . ثم وصف ثمرها بقوله: ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ وهي صورة جمالية أخرى ، فناسب بين الصورة والمقام .

ولا نريد أن نطيل في هذا الأمر ، وإلا فالكلام فيه يطول .

## الحركة غير الإعرابية



وردت في القراءة المشهورة كلماتٌ محرَّكةٌ بغير الحركة المألوفة المشهورة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ [الفتح] . وقوله : ﴿ وَمَا أَنسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف] بضم الهاء في (عليه) و (أنسانيه) مع أن المشهورَ في نحو هذا كَسُرُ الهاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء] . وقال : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبِي ﴾ [القصص] .

ويحسن أن نشير هنا إلى أن ضمَّ الهاء في نحو هذا لغةُ الحجاز ، وأما غيرهم فيكسرها .

جاء في «شرح الرضي على الكافية» : «وحركة هاء المذكر ضمةٌ إلا أن يكونَ قبلها ياءٌ أو كسرةٌ . فإن كان قبلها أحدهما فأهلُ الحجاز يُبْقَوْنَ ضَمَّتَهَا ويقولون : (بَهُو) و (لَدَيْهُو) وغيرُهم يكسرونها»<sup>(١)</sup> .

والقرآن نزل في هذا بلغة سائر العرب .

وهنا يعرض سؤال وهو : لماذا ورد في هذين الموطنين الضم دون الكسر؟

وينبغي لنا قبل أن نُجِيبَ عن السُّؤال أن نشيرَ إلى حقيقةٍ لغويَّةٍ معلومة

(١) شرح الرضي على الكافية ١١/٢ ، وانظر : الهمع ٥٨/١ - ٥٩ .

اتَّفَقَ عليها علماء اللُّغة قديماً وحديثاً ، وهي أن الضَّمَّة أقوى الحَرَكَات وأثقلها ، ثم تليها الكسرةُ ، ثم تليها الفتحةُ ، وهي أخفُّ الحَرَكَات (١) .

وقد يسبِقُ إلى الوهم أن الكسرة أثقلُ من الضَّمَّة لما سمعوه وتعلَّموه من قواعد كتابة الهمزة أن الكسرة أقوى الحَرَكَات بالنسبة إلى رسم الهمزة ثم الضَّمَّة ثم الفتحة .

فنقول : إن هذا أمرٌ إملائيٌّ لا علاقة له بالتَّنطُق ، ولا علاقة له بالحقيقة اللغوية الثابتة .

إن التَّنطُق بالضَّمَّة يحتاجُ إلى جَهْدٍ عَضَلِيٍّ أكثرَ من الكسرة والفتحة ، وذلك لأنها لا تُنطَقُ إلا بانضمام الشَّفَتَيْنِ وارتفاعِهما ولا تحتاجُ الكسرة ولا الفتحةُ إلى ذلك (٢) كما هو ظاهرٌ ومعلوم .

وهذه الحقيقة تُفسَّرُ كثيراً من الظواهر اللُّغوية في الأبنية والتأليف (٣) .

ونعود إلى مسألتنا لنرى سر التعبير في نحو ما مر .

١ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح] .

فقال : (عليه) فجاء بالضمة التي هي أثقل الحركات للدلالة على ثقل هذا العهد وعظمته ، وذلك من جملة نواح منها :

أ - أنه قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ وهذه البيعة كانت يوم

(١) انظر : التصريح (١/٥٩) .

(٢) انظر : التصريح ١/٥٨ .

(٣) انظر على سبيل المثال : المحتسب لابن جني ١٨/٢ - ١٩ ، معاني الأبنية في العربية

الْحُدَيْبِيَّةِ ، وكانت بيعةً على الموت في نصرته الرسول <sup>(١)</sup> ﷺ ونصرة دينه .  
والبيعة على الموت أشدُّ وأثقلُ أنواعِ البيعاتِ وأقواها .

ب - وقال : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ، وهذا تعظيمٌ لهذه البيعة التي يكونُ فيها الله هو الطرفُ المُبايَع .

ج - وقال : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا توكيدٌ لما قبله وتوثيقٌ لأمر هذه البيعة العظيمة .

د - حذر من نكث هذه البيعة ونقض هذا العهد ، وقال : إن ضررَ نكثه يعودُ على الناكث نفسه .

هـ - وذكر أنه من أوفى بهذا العهد سيؤتيه الله أجراً عظيماً . فهو كما ترى عهدٌ عظيمٌ ثقيلٌ ، فناسب أن يأتي بأثقلِ الحركات وهي الضمَّةُ مجانسةً لِثَقَلِ هذا العهد .

ثم إن الضمَّةَ يُنطقُ معها لفظُ الجلالة بتفخيم اللام ، بخلاف الكسرة ، فإنها يُنطقُ معها لفظُ الجلالة بترقيق اللام ، فجاء بالضمِّ لِيَتَفَخَّمَ التُّنطِقُ بلفظ الجلالة إشارةً إلى تفخيم العهد ، فناسب بينَ تفخيم الصوت وتفخيم العهد . وهو تناظرٌ جميل .

جاء في «روح المعاني» في هذه الآية : «وقرأ الجمهورُ (عليه) بكسر الهاء كما هو شائعٌ وضمُّها حفص . . .

وحسن الضمِّ في الآية التَّوَصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه» <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر : روح المعاني ٩٧/٢٦ .

(٢) روح المعاني ٩٧/٢٦ .



٢ - قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ ﴿٦٦﴾ [الكهف] بضم هاء (أنسانيه) والمشهور في هذا الكسر كما ذكرنا .

وهذا في الحوت الذي تزوّدهُ سيدنا موسى وفتاه وهما يبحثان عن الرجل الصالح . فقد أمر الله موسى أن يتزوّد حوتاً مالحاً ، فحيث يفقده فهناك يجدُ الرَّجُلَ .

وهذا الحوت على ما جاء في صحيح مسلم حوتٌ مُملَحٌ <sup>(١)</sup> ، وقيل : هو حوتٌ مشويٌّ ، وفي رواية : كانا يُصَيِّبانِ منه حاجتَهُما إلى الطَّعام <sup>(٢)</sup> .

والظاهر من سياق الآيات أنه كان مشويّاً ، بدليل قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً فتاه: ﴿إِنَّا عَدَاءٌ لَكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الكهف] . فهذا يدلُّ على أن الحوت كان جاهزاً لأن يُوكَلَ .

غير أن هذا الحوت المُملَحُ المشويُّ المأكولُ منه سرّت فيه الحياة واتَّخذَ سبيله في البحرِ والفتى ينظرُ إليه ، وكان عندَ جريهِ ينعقدُ فوقه الماءُ فيكونُ كالنفق والحوتُ يجري في داخلِهِ . وإليك قولَ الله فيه :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتَّبِعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْنَهُ إِنَّا عَدَاءٌ لَكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ [الكهف] .

جاء في «روح المعاني» في قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي : «مسلكاً كالسَّرَب ، وهو النَّفْقُ . فقد صحَّ من حديث الشيخين والتزمذي

(١) صحيح مسلم ج ٧ / ١٠٥ .

(٢) انظر : روح المعاني ٢٥ / ٣١٤ ، فتح القدير ٣ / ٢٨٧ .



والتَّسَائِي وغيرِهِم أن الله تعالى أمسك عن الحوتِ جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. والمرادُ به: البناءُ المُقَوَّسُ كالقنطرة<sup>(١)</sup>. وهذا المشهد من أعجب العجب. وفيه أمرانِ كلُّ منهما يدعو إلى العَجَب أكبر من صاحبه.

الأمر الأول: أن يحيا حوتٌ مشويٌّ مأكولٌ منه.

والثاني: أن يجري في البحر، فينعدّد فوقه الماء كأنه الطاقُ حيث جرى فيكون له كالنفق.

جاء في «فتح القدير»: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي: قال فتى موسى لموسى. ومعنى الاستفهام تعجيبٌ لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك الأمر مما لا يُنسى، لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة... والتقدير: أرايتَ ما دهاني أو نابني في ذلك الوقت والمكان...

﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وموضعُ التَّعَجُّب أن يحيا حوتٌ قد مات وأكل شقُّه ثم يثبُّ إلى البحر ويبقى أثرُ جريته في الماء، لا يمحو أثرها جريانُ الماء<sup>(٢)</sup>.

وهذا المشهد لا يُنسى على مرّ الأزمان، فكيف يُنسى بعدَ لحظات، فإن هذا من أقوى مواطنِ النسيان وأغربها وأعجبها، فعدّل في التعبير من الكسر إلى أقوى الحركات وهي الضمّة للإشارة إلى نُدرة مثل هذا النسيان وقوّته. فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان وندرة مثل هذا التعبير.

جاء في «روح المعاني»: «وضم حفصُ الهاء في (أنسانيه) وهو قليل

(١) روح المعاني ١٥/٣١٥.

(٢) فتح القدير ٣/٢٨٨.

في مثل هذا التركيب قلة النسيان في مثل هذه الواقعة . . . وفي إثارة أن والفعل على المصدر نوع مبالغٍ لا تخفى»<sup>(١)</sup>.

فناسب الضم هنا من جهتين :

١ - قوة الحركة وهي الضمة مناسبة لقوة النسيان .

٢ - ندره هذه الحركة في مثل هذا الموطن مناسبة لندرة النسيان في مثل هذا الموطن . والله أعلم .

٣ - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ ﴿١٧﴾

[آل عمران] بضم راء (يضرُّكم) اتباعاً لضمة الضاد ، والمشهور في نحو هذا فتح الراء أو فك الإدغام والجزم كقوله تعالى : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ ﴿٥٤﴾ [المائدة] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ ﴿٢١٧﴾ [البقرة] .

جاء في «البحر المحيط» : «وقرأ الكوفيون وابنُ عامر : (لا يضرُّكم) بضم الضاد والراء المشددة من ضرَّ يضرُّ . . . وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه بضم الضاد وفتح الراء المشددة ، وهي أحسن من قراءة ضم الراء ، نحو : لم يردَّ زيد . والفتح هو الكثير المستعمل»<sup>(٢)</sup> .

وقوله : إن فتح الراء أحسن من قراءة ضم الراء فيه نظراً . نعم إنه أشهر وأكثر ولكن ليس أحسن . وكيف تكون أحسن وهي ليست قراءة متواترة . فهي ليست من القراءات السبع ولا العشر ، بخلاف هذه القراءة ، فإنه قرأ بها أربعة من القراء السبعة ، وهم عاصم وحمزة بن حبيب الرزيات والكسائي وابنُ عامر ، إضافة إلى ابن جعفر من العشرة<sup>(٣)</sup> .

(١) روح المعاني ٣١٨/١٥ .

(٢) البحر المحيط ٤٣/٣ .

(٣) انظر : النشر ٢٤٢/٢ .



إنه ليس لأحد أن يُفْضَلَ قراءةً غيرَ متواترة على متواترةٍ، بل ليس له أن يُفْضَلَ قراءةً متواترةً على أخرى متواترةٍ. نعم إن له أن يختارَ لا أن يُفْضَلَ، فإن القراءاتِ المتواترةَ كلّها ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ ثبوتاً قطعياً لا تردّد فيه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن لقراءة الضم وجهاً حسناً في أداء المعنى في هذا الموضع ، ذلك أن الضمّة أثقل من الفتحة كما ذكرنا .

والقراءة بالفتح في هذا الموضع تُشيرُ إلى أنه ليس ثمة شيءٌ من الضّررِ يُصيّبُهُم .

وأما القراءة بالضم فكذلك ، إلا أن فيها إشارةً إلى ثقلِ الحالة التي هم فيها ، وأنه لم يضرَّهُم الكيدُ إلا أنهم قد ينالُهُم الأذى ، كما قال تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ [آل عمران] . ولذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ [آل عمران] أي : تَصَبَرُوا على أذاهم ومضايقتهم وتصبروا على طاعة الله ، وتَتَّقُوا الْمُحَرَّمَاتِ وأسباب الوهن ومنافذ أعداء الله ، مما يدلُّ على أن ثمة أذىً قد يُصيّبُهُم .

جاء في «روح المعاني» : «وإن تصبروا على أذاهم أو على طاعة الله تعالى ومضض الجهاد في سبيله (وتتقوا) ما حرّم عليكم لا يضرّكم كيدهم ومكرهم»<sup>(١)</sup> .

وجاء في «البحر المحيط» في هذه الآية : «قال ابن عباس : وإن تصبروا على أذاهم وتتقوا الله ولا تقنطوا ولا تسأموا أذاهم وإن تكرّر»<sup>(٢)</sup> .

فالقراءة بالفتح تُشيرُ إلى أن ليس ثمة شيءٌ من ذلك يُصيّبُهُم وإلى تهوين أمرهم .

(١) روح المعاني ٤٠/٤ - ٤١ .

(٢) البحر المحيط ٤٣/٣ .



أما القراءة بالضم فتشير إلى أن هذه الحالة أثقل وأشق من الأولى .  
فهي تحتاج إلى مراقبة وصبر وتقوى ، وأنهم مع ذلك قد ينالهم الأذى  
والمكاره . فالقراءة بالفتح تُخَفِّفُ الأمرَ وتُهَوِّنُهُ وذلك لخفة الفتحة .  
والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر  
ليستعدوا لما قد ينالهم من الأذى والمكروه ، وإن كان أخبر أن الكيدَ  
لا يضرهم .

فكان للضمة وجهٌ حسنٌ ، والله أعلم .

\* \* \*



## تعاور المفردات

قد تتعاور المفردات في التعبير القرآني ، فتستعمل مفردة في موطن ، وتستعمل غيرها في موطن آخر شبيه به ، بل في القصة الواحدة قد تستعمل مفردة في موضع وتستعمل غيرها في موضع آخر مع أن القصة واحدة والموقف واحد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۗ ﴾ ﴿١٦٠﴾ في سورة البقرة ، وقوله في سورة الأعراف : ﴿ فَأَبْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۗ ﴾ ﴿١٦٠﴾ . والانفجار بالماء أغزر من الانبجاس<sup>(١)</sup> فخالف بين المفردتين مع أن القصة واحدة والموضع واحد .

وكقوله تعالى : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۗ ﴾ ﴿١٠﴾ في سورة مريم ، وقوله : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ۗ ﴾ ﴿٤١﴾ في آل عمران ، فمرة قال : (ثلاث ليال) ومرة قال : (ثلاثة أيام) . إن القصة واحدة ، وهي قصة سيدنا زكريا عليه السلام والليالي غير الأيام . وكقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ ۗ ﴾ ﴿١٦٣﴾ في البقرة ، وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ۗ ﴾ ﴿١٥٨﴾ في النساء ، في حين قال في الأعراف : ﴿ وَإِذْ نُنَقِّنَا جَبَلَ فَوْقَهُمْ ۗ ﴾ ﴿١٧١﴾ فاستعمل ﴿ الطُّورَ ﴾ في البقرة والنساء ، غير أنه استعمل لفظ ﴿ الْجَبَلَ ﴾ في الأعراف والقصة واحدة . ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم . وقد ضربنا أمثلة لذلك في كتاب «التعبير القرآني» .

(١) انظر : (معترك الأقران) ١/٨٧ - ٨٨ ، درة التنزيل ١٤ - ٢٠ ، البرهان للكرمانى

إن الذي نريد أن نوضحه هنا أن ذلك ليس تناقضاً ولا اختلافاً ، بل إن ما ذكره في الموضوعين حق حتى لو اختلف معنى المفردتين . ذلك أن المذكور قد يكون عاماً في موطنٍ وخاصاً في موطنٍ آخر ، وقد تكون له حالتان فيذكر حالة في موطن ويذكر حالة أخرى في موطن آخر . وقد يكون الأمر عاماً فيذكر جزءاً منه في موطنٍ ويذكر الجزء الآخر في الموطن الآخر وهكذا . وكل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام ، كما سنبين ذلك .

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى في البقرة: ﴿ فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۗ ﴾ ، وقوله في الأعراف: ﴿ فَأَنْبَجَسْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۗ ﴾ ، فقد تقول: إذا كان الانفجار أكثر وأغزر من الانبجاس فلم قال مرة: (انفجرت) وقال مرة أخرى: (انبجست) ، وما حقيقة الأمر أهي انفجرت العيون بالماء أم انبجست؟

والجواب: أن كلا الأمرين حصل ، فقد انفجرت أولاً بالماء الكثير - كما قيل - ثم قلّ بمعاصيهم ، فأخذ ينبجس ، فذكر حالة الانفجار في موطنٍ وحالة الانبجاس في موطنٍ آخر ، كما ذكرنا في «التعبير القرآني»<sup>(١)</sup> . فالأمران واقعان وكلاهما حقيقة ، غير أنه ذكر حالة كل منهما تبعاً لما يقتضيه السياق ، ولو غاير بينهما فاستعمل الانفجار مكان الانبجاس لكان خلاف الأولى ، وخلاف ما يقتضيه السياق والمقام .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۗ ﴾ [مريم] .

وقوله: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ۗ ﴾ [آل عمران] .

فقد ذكر في سورة مريم أنه لا يكلم الناس ثلاث ليال ، وذكر في



آل عمران أنه لا يكلمُ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ . والأيامُ غيرُ الليالي ، فإنَّ اليومَ من طلوع الشمس إلى غروبها ، واللَّيْلُ ما يقابلُ النَّهَارَ ، فما حقيقةُ الأمرِ أهو لا يُكَلِّمُهُم ثلاثةَ أيامٍ أم ثلاثَ ليالٍ؟

والجواب: أن كلا الأمرين حقيقةٌ ، فهو لا يتمكَّنُ من أن يُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ بلياليهنَّ ، فمرة ذكر الأيام ومرة ذَكَرَ اللَّيَالِي ، وكلُّ ذلك صحيحٌ ولا تناقض ، غيرَ أنه ذَكَرَ اللَّيَالِي في موطنٍ والأيام في موطنٍ لسببِ اقتضاهُ المقامُ ، كما سنبينُ ذلك .

ومثُلُ ذلك ما استعمله في الطور والجبل . فإنَّ الطَّوْرَ جبلٌ ، غيرَ أن اختيار كلِّ لفظة كان لسببِ اقتضاهُ المقامُ .

وهكذا كلُّ ما ورد بلفظين مختلفين في القصة الواحدة أو الموقف الواحد ، فإنَّ كلَّ ذلك حقيقةٌ ليس ثَمَّةَ تناقضٍ أو اختلافٍ بين الأمرين ، إلا أنَّ اختيارَ لفظٍ على آخرٍ في كلِّ موطنٍ له سَبَبُهُ .

هذا قول نقوله على سبيل الإجمال .

وإليك مزيداً من الإيضاح والتفصيل .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ [البقرة] .

وقال: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمَهُ ۖ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا

عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾ [الأعراف]

فقال في البقرة: (فانفجرت) وقال في الأعراف: (فانبجست) كما



ذكرنا، وقد ذكرنا في «التعبير القرآني» هذه القصة وما ورد منها في سورتي البقرة والأعراف، وذكرنا أوجه الاختلاف بينهما وتعليل ذلك وأشرنا إلى أسباب التعبير بالانفجار والانبجاس وغير ذلك من مواطن الاختلاف<sup>(١)</sup>.

ولا نريد أن نعيد ما ذكرنا هناك، غير أننا نقول على سبيل الاختصار والإيجاز: إنه عبّر بالانفجار في سورة البقرة والانبجاس في سورة الأعراف لجملة أسباب منها - والله أعلم -:

١ - أن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ فناسب إجابته بانفجار الماء، في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ والحالة الأولى أكمل، فناسب إجابته بانفجار الماء دون الثانية.

٢ - قال في سورة البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي: إن الله قال ذلك لموسى قولاً، في حين ذكر في الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحيًا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ والحالة الأولى أكمل وأتم، فإن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحي، فناسب ذلك ذكر الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف.

٣ - قال في سورة البقرة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب، فناسب ذلك أن يُبالغ بذكر الانفجار بالماء في البقرة.

٤ - أن الله أسند القول إلى نفسه في سورة البقرة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا



هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴿١٠٠﴾ ، في حين بنى القول للمجهول في الأعراف فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ .

وإسناد القول إلى نفسه يكون في مقام التكريم والتشريف ، بخلاف البناء للمجهول<sup>(١)</sup> ، فناسب في مقام التكريم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس .

٥ - إن القصة في البقرة وردت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل وفي مقام تكريمهم ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

في حين أن المقام في سورة الأعراف مقام تقريع وتأنيب على ما فعلوه وارتكبه من مآثم ، فناسب في مقام تعداد النعم والتكريم ذكر حالة الانفجار دون الحالة الأخرى ، والله أعلم .

فذكر في كلِّ مقام ما يقتضيه من التعبير وكلاهما حق لا مزية فيه .

ومن ذلك استعمال الطور والجبل مع أن القصة واحدة .

قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

وقال في النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٢﴾﴾ .

في حين قال في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ .

فاستعمل (الطور) في آيتي البقرة والنساء ، واستعمل (الجبل) في آية

(١) انظر: التعبير القرآني ٣١٣ وما بعدها .

الأعراف ، ذلك أن التهديدَ في آية الأعراف أشدُّ ، فاستعمل لفظَ (الجبل) لذلك ، فإن (الجبل) اسم لما طال وعَظُمَ من أوتاد الأرض<sup>(١)</sup> . ولا يشترط في الطور ذلك . «فالجبل أعظم من الطور ، ولذلك يجيء في مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى في قول موسى - عليه السلام - : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَنَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ [الأعراف] .

فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلي وأثره .

ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التي لا تُحدُّ فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ] ، وقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات] ، وقال في يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [التكوير] . وقال : ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الغاشية] . ففيها من الدلالة على العظم ما ليس في اسم الطور<sup>(٢)</sup> .

ولذلك استعمل (نَتَقْنَا) مع (الجبل) ولم يستعمل (رَفَعْنَا) ، لما في النَّتَق من التَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ والتَّخْوِيفِ ، «فإن النَّتَقَ أشدُّ وأقوى من الرَّفْعِ ، ذلك أن معنى النَّتَقِ : هو الجَذْبُ والرَّعْزَعَةُ والافتلاعُ ، ومعناه أيضاً : هو أن يَقلَعَ الشيءَ فيرفعهُ من مكانِهِ لِيُزِمِّيَ بِهِ ، هذا هو الأصل<sup>(٣)</sup> في حين أن الرفع ضدُّ الوضع .

(١) لسان العرب (جبل) ١٣/١٠٢ .

(٢) انظر كتابنا : «الجملة العربية تأليفها وأقسامها» ، بحث التقديم والتأخير ص ٤١ .

(٣) لسان العرب (نتق) .



فأنت ترى أن في نَتْقِ الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رَفَعِ الطور. فَأَنْ يُزْعَزَعَ الجبلُ وَيُقْلَعَ من مكانه وَيُرْفَعَ لِيُرْمَى به كأن هناك قاذفاً يقذفُ به عليهم أمرٌ مرعبٌ ومخيفٌ وفيه من القوة والشدة ما ليس في رفعه... ألا ترى لو أن شخصاً رفعَ حجارةً من الأرض وتَهَيَّأ لضرب شخص ما ، ألم يكن ذلك أكثرَ تهديداً وإخافةً من مجردِ رفعِ الحجارة من الأرض؟»<sup>(١)</sup>.

فاستعمل (الجبل) بدل (الطور) ، و(نتقنا) بدل (رفعنا) لأن المقام يقتضي ذلك ، فإنه أفاضَ في ذكر صفات بني إسرائيل الذميمة ومعاصيهم في الأعراف ما لم يُفِضْه في سورتي البقرة والنساء ، فافتضى أن يكون كلُّ تعبير في مكانه .

ومن ذلك قوله تعالى في زكريا - عليه السلام - في سورة آل عمران :  
 ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ ﴾<sup>(٤١)</sup> .

وقوله في سورة مريم : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۗ ﴾<sup>(١٠)</sup> .

فقال في آل عمران : (ثلاثة أيام) ، وقال في مريم : (ثلاث ليال) . واليوم هو ما يقابل الليل ، فقال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۗ ﴾ [الحاقة] . «ومقداره من طلوع الشمس إلى غروبها... وقد يُرادُ باليوم الوقتُ مطلقاً، ومنه الحديث: «تلك أيام الهزج» أي: وقته»<sup>(٢)</sup> .

ودلَّ من ذكر اللَّيَالِي في مريم والأيام في آل عمران أنَّ زكريا

(١) انظر كتابنا: «الجملة العربية تأليفها وأقسامها» بحث التقديم والتأخير ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) لسان العرب (يوم) ١٣٦/١٦ - ١٣٨ ، تاج العروس (يوم) ٦/١١٥ .

- عليه السلام - لا يتمكّن من أن يُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ<sup>(١)</sup> من دون عِلَّةٍ أو مرضٍ ، في حين أنه يستطيع أن يذكر اللهَ ويُسَبِّحَهُ في نفسه . فذكر الليالي في آية مريم وذكر الأيام في آل عمران .

وقد تقول : وما سببُ هذا التخصيص ؟

والجواب : أن ذلك يَتَّضِحُ من سياق الآيات في كلٍّ من الموضعين :

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَأِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ لِي غَلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ .

وقال في سورة مريم :

﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ لِي غَلَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ .



ولو نظرنا في هذه الآيات لوجدنا أن المقابلة لم تختص بهذا المواطن ، وإنما هي ظاهرة في مواطن أخرى من النصين ، وكأنهما لوحتان فيتان متقابلتان ، وإليك طرفاً من هذا التقابل :

١ - قال تعالى في آل عمران : (ثلاثة أيام).

وقال في مريم : (ثلاث ليال).

٢ - قدّم مانع الذرية من جهة نفسه في آل عمران ، وهو الكبر ، على المانع من جهة زوجته ، وهو العقر فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ ﴾ . في حين قدّم المانع من جهة زوجته في مريم فقال : ﴿ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ .

٣ - ذكر في آل عمران أن الكبر أدركه وبلغه فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ فالكبر فاعلٌ وضميرُ المتكلم مفعولٌ به .

في حين ذكر في مريم أنه هو الذي بلغ الكبر ، فهو فاعل فقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ .

ومعنى ﴿ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ : أثّر فيّ الكبر فأضعفني ، وأسند البلوغ إلى الكبر توسعاً في الكلام ، كأنّ الكبر طالبٌ له <sup>(١)</sup> يجري خلفه حتى أدركه وبلغه .

٤ - ذكر في آل عمران أن امرأته عاقِرٌ ، وذكر في مريم أن امرأته كانت عاقراً بزيادة لفظ (كان) .

٥ - قدّم العشيّ على الإبكار في آل عمران : ﴿ وَسَبَّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ، وقدّم البكرة على العشيّ في مريم فقال : ﴿ أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

(١) انظر : الكشف / ١ / ٣٢٢ ، البحر المحيط ٢ / ٤٥٠ ، روح المعاني ٣ / ١٤٩ .

٦ - عَرَفَهُمَا بِأَلٍ فِي آلِ عِمْرَانَ ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ، وَنَكَرَهُمَا فِي مَرْيَمَ فَقَالَ: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ .

٧ - طَلَبَ فِي آلِ عِمْرَانَ مِنْ زَكَرِيَّا الذِّكْرَ وَالتَّسْبِيحَ فَقَالَ: ﴿وَأذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ .

وَفِي مَرْيَمَ طَلَبَ زَكَرِيَّا مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يُسَبِّحُوا ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ طُلِبَ مِنْهُ ذَلِكَ .

وَهُنَاكَ مَقَابَلَاتٌ أُخْرَى .

فَكَانَ الْمَشْهَدِينَ مُتَقَابِلِينَ تَقَابُلَ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ .

ثُمَّ إِنَّ اخْتِيَارَ اللَّيْلِ فِي مَرْيَمَ يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ الْقِصَّةِ وَجَوُّهَا ، وَكَذَلِكَ اخْتِيَارَ الْيَوْمِ فِي آلِ عِمْرَانَ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَرْيَمَ: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حَسَّنَ ذِكْرَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ خَفَاءَ النِّدَاءِ يُشْبِهُ الْخَفَاءَ فِي اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللَّيْلَ يَخْفِي مَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ لَمَّا فِيهِ مِنْ ظِلْمَةٍ ، بِخِلَافِ النَّهَارِ ، فَإِنَّهُ يَفِيدُ الظُّهُورَ وَالْإِظْهَارَ .

وَمِمَّا حَسَّنَ ذَلِكَ أَيْضاً ذِكْرُ شَيْخُوخَتِهِ وَضَعْفِهِ ، وَهُمَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِاللَّيْلِ وَمَا فِيهِ مِنْ سُبَاتٍ وَسُكُونٍ وَقِلَّةِ حَرَكَةٍ ، وَإِذَا كَانَ لَنَا أَنْ نَقَابِلَ بَيْنَ حَالِ الْإِنْسَانِ وَالزَّمَانِ ، فَإِنَّ الشَّبَابَ وَالْعَافِيَةَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالنَّهَارِ وَمَا فِيهِ مِنْ حَرَكَةٍ ، وَإِنَّ الشَّيْخُوخَةَ وَالضَّعْفَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِاللَّيْلِ وَمَا فِيهِ مِنْ سُكُونٍ .

فَذَكَرَ شَيْخُوخَتَهُ وَوَهْنَ عَظْمِهِ مَعَ اللَّيْلِ فَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا... ﴿١﴾... وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أَي: مَبْلَغَ الْقُحُولِ وَالضَّعْفِ . وَمَعْنَى (الْعِتْيِ): الْمَبَالِغَةُ فِي الْكِبَرِ وَيَبَسِ الْعُودِ<sup>(١)</sup> . وَلَمْ يَذْكُرْ مَعَ الْأَيَّامِ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ الْكِبَرُ﴾ . فَمَا ذَكَرَهُ فِي مَرْيَمَ أَنْسَبُ مَعَ ذِكْرِ اللَّيْلِ .



ثم إنه أشار في مريم إلى طلبه ورثته بعد موته ويرث من آل يعقوب فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي: بعد موتي. والموت ليل طويلٌ وسباتٌ ممتدٌ، وفي الأثر: «النوم أخو الموت» وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام] وهذا أقرب إلى الليل وذكره وألصق به من ذكر النهار. ولم يذكر مثل ذلك في آل عمران حيث ذكّر الأيام.

وهناك أمرٌ يتجلى من هذين النصين وهو:

أن البشارة بيحيى في آل عمران أكملٌ وأعظمُ مما في مريم ، ذلك أنه قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٣٩]. فوصفه بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مُصَدِّقًا بعيسى. وسيداً ، و﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الحاصرُ نفسه عن الشهوات وعن المعاصي<sup>(١)</sup>. ونبياً من الصالحين أي: «ناشئاً من الصالحين ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء أو كائناً من جملة الصالحين كقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣]»<sup>(٢)</sup>.

في حين لم يقل في سورة مريم إلا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [٧].

ولعظم البشارة وكمالها اقتضى ذلك عظم الشكر وكماله:

١ - فقال في آية آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ، وقال في مريم: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ واليوم أبين من الليل في ظهور هذه الآية ، ذلك أن الليل يمضي كثيرٌ منه في النوم ،

(١) انظر البحر المحيط ٤٤٨/٢ ، وانظر: تفسير البيضاوي ٧٣.

(٢) الكشاف ٣٢٢/١.



فذكرها - عليه السلام - لا بُدَّ أن ينامَ فيه والناسُ أيضاً ينامون ، فالتسبيحُ والعبادةُ في اللَّيْلِ أَقْلُ مما في النَّهَارِ . ومخاطبةُ الناسِ ومخالطتهم فيه أَقْلُ . فالآيةُ في اليومِ أطولُ وأظهرُ .

٢ - أنه في آل عمران طُلب من زكريا - عليه السلام - أن يذكرَ رَبَّهُ ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ ، في حين طلب زكريا من قومه في سورة مريم أن يُسَبِّحُوا ، ولم يذكر أنه طُلبَ منه التسبيح . وتسبيحه هو أدل على شكره .

٣ - أنه طُلبَ منه أن يذكرَ رَبَّهُ كثيراً في آل عمران ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً﴾ وهذا شكرٌ مناسبٌ لِعَظَمِ البشارة .

٤ - أنه طُلبَ منه الجمع بين الذكر الكثير والتسبيح ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ﴾ وهذا مناسب لعظم البشارة .

٥ - لما قدّم في آل عمران المانع من جهة نفسه ، ناسب أمره هو بالذكر والتسبيح وأن يقوم به هو . ولما قدّم في مريم المانع من جهة غيره (وهو الزوج) ناسب ذكر غيره بالتسبيح وهم قومه .

وهناك سبب دعا إلى تقديم المانع من جهة نفسه في آل عمران وتقديم المانع من جهة زوجه في مريم ، ذلك أنه قال في آل عمران: ﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ ، وقال في مريم: ﴿وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ . والعُقْرُ قد يحصلُ عن الكِبَرِ والهَرَمِ أو عن عارض ، وقد يكونُ ذلك طبيعَةً .

جاء في «فتح القدير» في قوله: ﴿وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾: «العاقرة: هي التي لا تَلِدُ لِكِبَرِ سِنِّهَا ، والتي لا تَلِدُ أيضاً لِغَيْرِ كِبَرٍ ، وهي المرادة هنا»<sup>(١)</sup> .



وفي «المصباح المنير»: «عقرت المرأة... انقطع حملها ، فهي عاقرة»<sup>(١)</sup>.

وفي «لسان العرب»: «بيضة العُقر... قيل: هي آخر بيضة تبيضها [أي: الدجاجة] إذا هرمت...»

ويقال: كان ذلك بيضة العُقر ، معناه: كان ذلك مرّة واحدة لا ثانية لها»<sup>(٢)</sup>.

فقوله: ﴿وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ﴾ يفيد أن هذا شأنها حال الإخبار عنها ، وربما لم تكن كذلك قبلاً.

وأما قوله: ﴿وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ يفيد أن هذا وصفها منذ شبابها ، فالعُقر وصفٌ مستحكمٌ فيها ، وليس عارضاً ، فتكون الولادة في مثل هذا أبعد وأعجب .

جاء في «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: «وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عُمرها»<sup>(٣)</sup>.

فقدم ما هو أبعد وأدعى إلى العجب في مريم ، بخلاف ما في آل عمران.

٦ - لما ذكر الليل في آية مريم (ثلاث ليالٍ) ناسب ذلك تقديم البكرة على العشي ، لأن البكرة أول النهار ، وهي من الفجر إلى طلوع الشمس<sup>(٤)</sup> أو إلى الضحى<sup>(٥)</sup> . والعشي من بعد الزوال إلى غروب الشمس ، أي: من

(١) المصباح المنير (عقر) ٤٢١ .

(٢) لسان العرب (عقر) ٦/٢٧٢ - ٢٧٣ ، وانظر: (أساس البلاغة) - عقر ٦٤٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/١١٢ ، وانظر: فتح القدير ٣/٣١١ .

(٤) انظر: لسان العرب (غدا) ١٥/٣٥٢ .

(٥) انظر: روح المعاني ٣/١٥٢ ، تفسير البيضاوي ٧٣ .

وقت صلاة الظهر إلى المغرب<sup>(١)</sup>. ولا شك أنه بعد الليل تأتي البُكْرَةُ ، ثم العَشِيَّةُ ، فأراد أن لا يذهب من الوقت شيءٌ في غير الطاعة والتسبيح ، فقال: ﴿بُكْرَةٌ وَعَشِيَّةٌ﴾ . ولو قال: (عَشِيَّةً وَبُكْرَةً) لكانت البُكْرَةُ الأولى مضت من دون تسبيح . فكان تقديم البُكْرَةِ ههنا أتم وأولى .

ولما ذكر اليوم في آل عمران ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ كان تقديم العَشِيَّةِ أولى ، لأن بُكْرَةَ ذلك اليوم قد مضت وبقي العَشِيَّةُ ، فلا بد من ابتدائه للتسبيح والذكر فيه . فلو قدم البُكْرَةَ أيضاً لذهب عَشِيَّةُ اليوم الأول من دون تسبيح وذكر ، فيكون قد ذهبت البُكْرَةُ والعَشِيَّةُ . فتقديم ما قدم هو الأولى والأدل على الشكر .

٧ - إن البشارة في آل عمران حصلت وهو قائمٌ يُصَلِّي في المحراب ، في حين لم يذكر ذلك في مريم ، بل عَلِمْنَا من فحوى الكلام أن البشارة كانت وهو في المحراب ، بدليل قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ ولا يقتضي كونه في المحراب أنه كان يُصَلِّي فيه . فذكر في آل عمران الحالة الأكمل التي كان عليها سيدنا زكريا ، وهو المناسب لعظم البشارة وكمالها .

٨ - أن البُكْرَةَ والعَشِيَّةَ نَكَرَتَانِ في مريم ﴿أَنْ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيَّةً﴾ مُعَرَّفَتَانِ في آل عمران ﴿يَالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ويذكر المفسرون أن (أل) في ﴿يَالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ تفيد العموم .

جاء في «البحر المحيط»: «والظاهر في ﴿يَالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أن الألف واللام فيهما للعموم ، ولا يُرَادُ عَشِيَّةُ تلك الثلاثة الأيام ، ولا وقتُ الإِبْكَارِ فيها»<sup>(٢)</sup> .

(١) لسان العرب (عشا) ٢٨٩/١٩ ، روح المعاني ٣/١٥٢ ، تفسير البيضاوي ٧٣ .

(٢) البحر المحيط ٢/٤٥٣ ، وانظر: روح المعاني ٣/١٥٢ .



ونظير ذلك من الظروف كثير مما دخلت عليه (أل) في الاستعمال القرآني ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [غافر] ، وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص] ، وقوله : ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ [صافات] .

ونحوها كثيرٌ مما يدلُّ على العموم والاستمرار .  
وذلك يدل على تطاول مدة الذكر والتسبيح ، وهو مناسب لعظم البشارة ، والله أعلم .

ومن اختلاف المفردة في الموطنين المتشابهين قوله تعالى : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ آبَائِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج] .

فقال في سورة البقرة : ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ وقال في سورة الحج : ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ . والعاكفون : هم أهل البلد الحرام المقيمون ، وقيل : هم المُجَاوِرُونَ له من الغرباء ، وهم الذين عكفوا عنده ، أي : أقاموا لا يبرحون ، وقيل : هم المعتكفون فيه <sup>(١)</sup> .

والقائمون : هم المُصَلُّون كما يقول المُفسِّرون ، فعلى هذا يكون القائمون هم الرُّكَّع السُّجُود ، إلا أنه ذكر أهمَّ أركان الصَّلَاة وهي القيام والركوع والسجود .

(١) انظر : البحر المحيط ١/٣٨٢ ، الكشاف ١/٢٣٧ ، روح المعاني ١/٣٨١ ، تفسير ابن كثير ١/١٧٠ ، فتح القدير ١/١٢١ .

جاء في «البحر المحيط»: «والقائمون هم المُصَلُّونَ ، ذكر من أركانها أعظمها ، وهو القيامُ والرُّكُوعُ والسُّجُودُ»<sup>(١)</sup> .

وجاء في «روح المعاني»: «ولعلَّ التعبيرَ عن الصَّلَاةِ بأركانها من القيام والرُّكُوعِ والسُّجُودِ للدلالة على أن كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء التطهير أو التَّبَوُّةِ على ما قيل»<sup>(٢)</sup> .

والذي يظهر لي - والله أعلم - أنَّ القيامَ لا يختصُّ بالقيام في الصلاة ، وإنما هو يشملُ القيامَ بأمر الدِّينِ عموماً والاستمسكَ به والمحافظة عليه .

فالقائمون هم المستمسكونَ بدين الله الثابتونَ عليه كما قال تعالى : ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾<sup>(١١٦)</sup> [آل عمران] .

جاء في «لسان العرب»: «معنى القيام العزم . . . ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾<sup>(١١٩)</sup> [الجن] . أي : لما عزم ، وقوله : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١١٥)</sup> [الكهف] . أي : عزموا فقالوا . . . والقائم بالدين المستمسك به الثابت عليه . . . وعليه قوله تعالى : ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾<sup>(١١٦)</sup> [آل عمران] . أي : مواظبةٌ على الدِّينِ ثابتةٌ»<sup>(٣)</sup> .  
«وكذلك فلانٌ قائمٌ بكذا ، إذا كان حافظاً له مستمسكاً به»<sup>(٤)</sup> .

أما سببُ ذكر (العاكفين) في سورة البقرة و(القائمين) في سورة الحج فذلك أمرٌ يقتضيه السِّيَاقُ .

إن معنى (العكوف) الإقامة ولزوم المكان .

(١) البحر المحيط ٦/٣٦٤ ، وانظر : فتح القدير ٣/٤٣٤ .

(٢) روح المعاني ١٧/١٤٣ .

(٣) لسان العرب (قوم) ١٥/٣٩٨ - ٤٠٣ .

(٤) لسان العرب (قوم) ١٥/٤٠٣ .



جاء في «لسان العرب»: «عَكَفَ على الشيء: أَقْبَلَ عليه مواظباً لا يصرفُ وجهَهُ عنه. وقيل: أقام، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ﴿لَهُمْ عَاكِفٌ﴾ [طه: ٩٧] أي: مُقِيمٌ . . . ويعكفُ عَكَفًا وَعُكُوفًا: لَزِمَ المَكَانَ. والعُكُوفُ: الإقامَةُ في المسجد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَنْكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال المفسرُونَ وغيرُهُم من أهل اللغة: عاكفون: مُقِيمُونَ في المساجد لا يخرجونَ منها إلا لحاجة الإنسان، يُصَلِّي فيه ويقرأ القرآن. ويقالُ لمن لازَمَ المسجدَ وأقام على العبادة فيه: عاكف ومعتكف»<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا أن العاكفين هم أهل البلد الحرام المقيمون، وقيل: هم المجاورون له من الغرباء. وقد جاءت الآية في سياق ذكر أهل البلد الحرام وسكانه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وذكر ذرية إبراهيم وإسماعيل فقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وسكانُ البلد الحرام هم من ذُرِّيَّةِ إبراهيم وإسماعيل. ومن هؤلاء السكان المقيمين في البلد الحرام بُعث النبي الأمين ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل، فناسب ذلك ذكر العاكفين، وهم أهل البلد الحرام المقيمون أو المجاورون وعمومُ من لزم المسجد الحرام.

أما في آية الحج فقد ذكر (القائمين) ولم يذكر العاكفين ، ذلك أنه قال قبل هذه الآية: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الحج] . فجعل العاكف فيه وغيره سواء ، فليس من المناسب أن يُفرد العاكفين ، فقال: (والقائمين). والقائمون قد يكونون من العاكفين وغيرهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر بعدها فريضة الحج والحجاج الذين يأتونه من كل فج عميق ، ولم يذكر أهل البلد الحرام وسكانه ، فقال: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٩﴾ [الحج] .

ومن هؤلاء المذكورين من سيعود إلى أهلهم بعد قضاء فريضة الحج ، فلا يناسب ذلك ذكر العكوف والإقامة ، وإنما يناسبه القيام . والقيام من معانيه القيام بأمر الدين والاستمسك به كما ذكرنا ، ومن ذلك القيام بالصلاة وبمناسك الحج وغيرها من الطاعات . فناسب ذلك ذكر العاكفين في البقرة والقائمين في سورة الحج والله أعلم .

## المراجع



- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ، مطابع الشعب ١٩٦٠م .
- أنوار التنزيل ، البيضاءوي ، المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ .
- البحر المحيط لأبي حيان ط ١ ، سنة ١٣٢٨هـ ، مطبعة السعادة بمصر .
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط ١ ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م ، دار إحياء الكتب العربية .
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، محمد بن حمزة الكرمانى ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، حققها ناصر بن سليمان العمر ، مطبوعة بالآلة الكاتبة .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، القاهرة ١٣٨٣هـ .
- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، تصوير ، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر ، سنة ١٣٠٦هـ .
- التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط ١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٩٨م .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، طبع بدار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .



- الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، د. فاضل صالح السامرائي ، طبع بدار الفكر ، عمان ، الأردن ٢٠٠٢م.
- الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، مطبعة دار الكتب المصرية.
- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري ، دار إحياء الكتب العربية.
- شرح الشافية لرضي الدين الإسترابادي ، تحقيق محمد محيي الدين وجماعة ، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- شرح الكافية لرضي الدين الإسترابادي ، مطبعة (الشركة الصحافية العثمانية) ، ١٣١٠ هـ.
- شرح المفصل لابن يعيش ، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.
- صحيح مسلم ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر.
- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، سنة : ١٣٤٩ هـ.
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ، ط ٥ ، شركة فن الطباعة ، مصر.
- الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.



- لسان العرب لابن منظور ، مصور عن طبعة بولاق .
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط ١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٩٨م .
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٩٦م .
- المصباح المنير للفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت .
- معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل صالح السامرائي ، ط ١ ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
- معاني القرآن لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء ، مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
- معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر - الموصل - الطبعة الأولى .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد البجاوي ، دار الثقافة العربية للطباعة .
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، طهران .
- ملك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، مطبعة مصطفى محمد بمصر .
- همع الهوامع للسيوطي ، ط ١ ، سنة ١٣٢٧هـ ، مطبعة السعادة بمصر .



# فهرس الموضوعات



٥	.....	المقدمة
١١	.....	الذكر والحذف
١٢	.....	اسطاعوا ..
١٢	.....	تَنَزَّلُ ..
١٣	.....	توفاهم ..
١٤	.....	تبدَّل
١٥	.....	لا تَفَرَّقُوا ..
١٧	.....	تَوَلَّوْا ..
١٩	.....	تَصَدَّقُوا ..
١٩	.....	تستطع ..
٢٠	.....	أفلا تذكرون ..
٢٤	.....	ما كنا نبغ ..
٢٥	.....	واخشوني
٢٨	.....	لولا أَخَّرْتَنِي
٢٩	.....	اتبعن ..
٣٠	.....	تسألن ..
٣٢	.....	عباد ..

الرسول ..	و.. الرسولا ..	٣٩
السييل ..	و.. السبيلا ..	٣٩
الظنون ..	و.. الظنونا ..	٣٩
الإبدال		٤١
يَضْرَعُونَ ..	و.. يتضرعون ..	٤٤
أرسلنا إلى أمم ..	و.. أرسلنا في قرية ..	٤٥
المُصَدِّقِينَ ..	و.. المتصدقين ..	٤٥
أفلا يتدبرون ..	و.. أفلم يدبروا ..	٤٧
يَزْكِي ..	و.. يتركي ..	٥٠
المُطَهِّرِينَ ..	و.. المتطهرين ..	٥١
يَذْكُر ..	و.. يتذكر ..	٥٢
يَذْكُرُونَ ..	و.. يتذكرون ..	٥٤
اطَّيَّرْنَا ..	و.. تَطَيَّرْنَا ..	٥٦
يَخْضَمُونَ ..	و.. يختصمون ..	٥٦
بكة ..	و.. مكة ..	٥٧
اللائي ..	و.. اللاتي ..	٥٨
بسطة ..	و.. بصطة ..	٥٩
يبسط ..	و.. يبسط ..	٦٠
عُتُوٌّ ..	و.. عِتِيٌّ ..	٦٢
فَعْلٌ وَأَفْعَلٌ بِمَعْنَى		٦٥
كَرَّمَ ..	و.. أكرم ..	٦٦
أوصى ..	و.. وصى ..	٦٦



- نزل .. و .. أنزل ..... ٦٧
- نَجَّى .. و .. أنجى ..... ٧٤
- نَجَّاهم .. و .. أنجاهم ..... ٧٥
- نَجَّاهم .. و .. أنجاهم ..... ٧٥
- نَجَّينا .. و .. أنجينا ..... ٧٦
- نَجَّيناه .. و .. أنجيناه ..... ٧٧
- نَجَّيناكم .. و .. أنجيناكم ..... ٧٩
- المبني للمجهول ..... ٨١
- يُنزِفُون .. و .. يُنزِفُون ..... ٨١
- فاكهة .. و .. فواكه ..... ٨٣
- يطاف .. و .. يطوف ..... ٨٥
- طُبِع .. و .. طُبِع ..... ٨٨
- الوصف ..... ٩١
- مشتبهاً .. و .. متشابهاً ..... ٩١
- أعجاز نخل خاوية .. و .. أعجاز نخل منقعر ..... ٩٧
- الإفراد والتثنية والجمع ..... ١٠١
- إني رسول .. و .. إنا رسولا .. إنا رسول ..... ١٠١
- طفل .. و .. أطفال ..... ١٠٣
- بني .. و .. أبناء ..... ١٠٧
- النخل .. و .. النخيل ..... ١٠٩
- الحركة غير الإعرابية ..... ١١٧
- ومن أوفى بما عاهد عليه الله .. و .. ما أنسانيه إلا الشيطان ..... ١١٧



١٢٥	تعاور المفردات
١٢٥	فانفجرت .. و .. فاننجست
١٢٦	ثلاث ليال .. و .. ثلاثة أيام
١٢٩	الطور .. و .. الجبل
١٣٩	العاكفين .. و .. القائمين
١٤٣	المراجع
١٤٧	فهرس الموضوعات

\* \* \*